أدغار موران

ثقافة أوروبّا وهمجيّتها

ترجمة : المنتصر الحملي

تقديم ومراجعة : *كمال الزّغباني*

APULEIUS

ثقافة أوروبّا وهمجيتها

ثقافة أوروبّا وهمجيّتها

العنوان الأصليّ :

Culture et barbarie européennes

Edition Bayard

الكاتب : أدغار موران

Edgar Morin

ترجمة: المنتصر الحملي

تقديم ومراجعة : *كمال الزّغباني*
الأستاذ بقسم الفلسفة بكلّيّة الآداب والعوم الإنسانيّة بصفاقس

الطّبعة: الأولى 2010

جميع الحقوق محفوظة للمترجم

لوحة الغلاف للرّسّام الإسبانيّ Pedro Berruguete القرن 15 م

شكر خاصّ

الشّكر الموفور للصّديق الأستاذ والمبدع كمال الزّغباني الّذي قبل بطيب خاطر أن يقوم بتقديم هذه التّرجمة ومراجعتها، وعلى تصويباته ونصائحه الثّمينة الّتي أعطت لهذا الكتاب صورته النّهائيّة.

إهداء المترجم

إلى الكاتب أدغار موران...رمزا للفكر الإنسانيّ الحرّ والجريء.

إلى ... أجمل امرأة في الحياة، تهون من أجلها كلّ التّضحيات، هي الحرّيّة.

إلى أمّي مرّة أخرى... وإلى الأبد.

إلى ابنتي الأبيّة إباء، وهي تدنو من ربيعها العشرين.

إلى ميرا... الحلم الجميل والفكرة السّاحرة.

إلى كلّ أفراد عائلتي وفي طليعتهم لسعد.

إلى جميع صديقاتي وأصدقائي، وخصوصا منهم الدّكتور نزار نصر الله الّذي لولا دعمه وتشجيعه المستمرّان لي لما رأى هذا الكتاب النّور.

إلى جميع المناضلين بالفكر والسّاعد في سبيل عالم أفضل وأجمل، عالم يقوم على حقّ الاختلاف والعدل والمساواة بين البشر والشّعوب والحضارات.

تمهيد

"ثم قال بعض من ينصر الشعر ويحوطه ويحتج له: إن الترجمان لا يؤدي أبدا ما قاله الحكيم، على خصائص معانيه، وحقائق مذاهبه، ودقائق اختصاراته، وخفيات حدوده، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها، ويؤدي الأمانة فيها، ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على الجري، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها والإخبار عنها على حقها وصدقها. إلا أن يكون في العلم بمعانيها، واستعمال تصاريف ألفاظها، وتأويلات مخارجها، مثل مؤلف الكتاب وواضعه، فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق، وابن ناعمة، وابن قرة، وابن فهريز، وثيفيل، وابن وهيلي، وابن المقفع، مثل أرسطاطاليس؟! ومتى كان خالد مثل أفلاطون؟!

ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزن علمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتى يكون فيهما سواء وغاية، ومتى وجدناه أيضا قد تكلم بلسانين، علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما؛ لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها، وتعترض عليها، وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه، كتمكنه إذا انفرد بالواحدة، وإنما له قوة واحدة، فإن تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليهما، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات. وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق، والعلماء به أقل، كان أشد على المترجم، وأجدر أن يخطئ فيه. ولن تجد البتة مترجما يفي بواحد من هؤلاء العلماء.

هذا قولنا في كتب الهندسة، والتنجيم، والحساب، واللحون، فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين وإخبار عن الله -عزل وجل- بما يجوز عليه مما لا يجوز عليه، حتى يريد أن يتكلم على تصحيح المعاني في الطبائع، ويكون ذلك معقودا بالتوحيد، ويتكلم في وجوه الإخبار واحتمالاته للوجوه، ويكون ذلك متضمنا بما يجوز على الله تعالى، مما لا يجوز، وبما لا يجوز على الناس مما لا يجوز، وحتى يعلم مستقر العام والخاص، والمقابلات التي تلقى الأخبار العامية المخرج فيجعلها خاصية؛ وحتى يعرف من الخبر ما يخصه الخبر الذي هو أثر، مما يخصه الخبر الذي هو قرآن، وما يخصه العقل مما تخصه العادة أو الحال الرادة له عن العموم؛ وحتى يعرف ما يكون من الخبر صدقا أو كذبا،

وما لا يجوز أن يسمى بصدق ولا كذب؛ وحتى يعرف اسم الصدق والكذب، وعلى كم معنى يشتمل ويجتمع، وعند فقد أي معنى ينقلب ذلك الاسم، وكذلك معرفة المحال من الصحيح، وأي شيء تأويل المحال، وهل يسمى المحال كذبا أم لا يجوز ذلك، وأي القولين أفحش: المحال أم الكذب، وفي أي موضع يكون المحال أفضع، والكذب أشنع؛ وحتى يعرف المثل والبديع، والوحي والكناية، وفصل ما بين الخطل والهدر. والمقصور والمبسوط والاختصار؛ وحتى يعرف أبنية الكلام، وعادات القوم، وأسباب تفاهمهم، والذي ذكرنا قليل من كثير. ومتى لم يعرف ذلك المترجم أخطأ في تأويل كلام الدين. والخطأ في الدين أضر من الخطأ في الرياضة والصناعة، والفلسفة والكيمياء، وفي بعض المعيشية التي يعيش بها بنو آدم.

وإذا كان المترجم الذي قد ترجم لا يكمل لذلك، أخطأ على قدر نقصانه من الكمال. وما علم المترجم بالدليل عن شبه الدليل؟ وما علمه بالأخبار النجومية؟ وما علمه بالحدود الخفية؟ وما علمه بإصلاح سقطات الكلام، وأسقاط الناسخين للكتب؟ وما علمه ببعض الخطرفة لبعض المقدمات؟ لا بد أن تكون اضطرارية، ولا بد أن تكون مرتبة، وكالخيط الممدود.وابن البطريق وابن قرة لا يفهمان هذا موصوفا منزلا، ومرتبا مفصلا، من معلم رفيق، ومن حاذق طب، فكيف بكتاب قد تداولته اللغات واختلاف الأقلام، وأجناس خطوط الملل والأمم؟!

ولو كان الحاذق بلسان اليونانيين يرمي إلى الحاذق بلسان العربية، ثم كان العربي مقصرا عن مقدار بلاغة اليوناني، لم يجد المعنى والناقل التقصير، ولم يجد اليوناني الذي لم يرض بمقدار بلاغته في لسان العربية بدا من الاغتفار والتجاوز، ثم يصير إلى ما يعرض من الآفات لأصناف الناسخين؛ وذلك أن نسخته لا يعدمها الخطأ، ثم ينسخ له من تلك النسخة من يزيده من الخطأ الذي يجده في النسخة، ثم لا ينقص منه، ثم يعارض بذلك من يترك ذلك المقدار من الخطأ على حاله، إذا كان ليس من طاقته إصلاح السقط الذي لا يجده في نسخته".

الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق محمد عبد السلام هارون، دار الجيل، 1955، الجزء الأول، ص ص 75-79.

تقديم

إدغار موران وسؤال الهمجية

كمال الزّغباني

"ينبغي التفكير في الهمجية من أجل السعي إلى مجاوزتها ولم لا التخلص منها."

ينطلق إدغار موران في هذا الكتيّب ذي القيمة البالغة رغم ضآلة حجمه من جهة عدد الصفحات من مفارقة تدفع الفكر إلى السؤال والتسآل: أن الثقافة والهمجية ضروريتان أحدهما للأخرى رغم التناقض الظاهر بينهما. وهي مفارقة يرصد موران تجلّياتها في مختلف الأحقاب والحضارات الإنسانية قبل أن يفصّل ويدقّق النظر فيها من خلال مثال-نموذج هو ثقافة أوروبا وهمجيتها. وهو يتخذ بذلك منذ المنطلق مسافة نقدية واضحة من الموجات المتعاقبة من المركزية الأوروبية في مختلف تجلياتها الفلسفية والأنثربولوجية والسياسية والتي قامت على مسلّمة كبرى مفادها أن أوروبا الثقافة والعقل والتقدم (رجوعا إلى معجزتها الإغريقية وتواصلا مع أنوارها وحقوق إنسانها مرورا بثوراتها العلمية والسياسية الكبرى) تتناقض جذريا مع همجية وتخلّف وتوحّش البرابرة أينما كانت أوطانهم وكيفما كانت ألوانهم. لقد عانى العرب واليهود والهنود والغجر والزنوج والآسيويون وسكان الأمازون...عانوا كلهم من تلك القناعة التي رسخت طويلا لدى الأوروبيين والتي على أساسها شنوا

حروبهم "التمدينية" وبرّروا "استعمارهم" الشعوب وتدميرهم ثقافاتها ونهبهم خيراتها. عانوا من صورة روبنسون كروزوي الذي يستعبد جمعة البدائي ويخرجه من توحّشه ليزرع في عقله وروحه وسلوكه أنوار الثقافة والتحضر.

« ليست الهمجيّة عنصرا مرافقا للحضارة فحسب، بل هي جزء منها لا يتجزّأ. فالحضارة تنتج الهمجيّة، وخصوصا الغزو والهيمنة » (ص11). يستعيد موران تاريخ البشرية برمّته منذ المجتمعات الأولى أو الأولية حتى عصرنا الحالي مرورا بالإنسان الصانع والإنسان العاقل ليبيّن أن تزاوج الثقافة بالهمجية شكّل عنصرا قارا في الوجود البشري. وهو يذكّرنا في هذا بالأطروحة الخلدونية الشهيرة حول المسارات المحتومة التي تعرفها دورة العمران البشري. إذ يشكل التوحّش عند صاحب المقدمة المنطلق الأوّل الذي يتأتى منه السلطان وتتحقق به الغلبة، وما العصبية التي توحّد شمل المجموعة سوى عنصر حامل لذلك التوحّش الأصلي الذي يمكّن لها من أعدائها. لكن تلك العصبية بدورها تضعف وتتحلّل بفعل "نعيم" الحضارة والرفاه فتنتج من الفنون والآداب أرقاها في ذات الوقت الذي تفقد فيه توحّشها الأوّل لتغدو بدورها فريسة سهلة لعصبية جديدة ذات توحّش أشد تنازعها السلطان وتقضي عليها لتحلّ محلّها. وهكذا...

ويستبعد موران بقوّة – وهي إحدى الفضائل الكثيرة لهذا الكتاب - أيّ منطق ثنائي "مانوي" في رؤية التاريخ البشري ماضيا وحاضرا ومستقبلا. ليس ثمة في هذا التاريخ شر مطلق أو خير مطلق. بل إنه ليس ثمة لا خير ولا شر. فهذه الثنائية الأخلاقية يتم تجاوزها (كما تم الأمر مع سبينوزا ثم مع نيتشه) إلى ثنائية الحسن والسيئ ذات الطابع الإيطيقي. فالإمبراطورية الرومانية التي نكّلت بالشعوب وسلبتها خيراتها ودمّرت حضارات عريقة مثل اليونان وقرطاج قد ساهمت أيضا وبالتوازي في ابتكار مواطنة عالمية مفتوحة على كل الممكنات الإبداعية وأعطت بالتالي دفعا كبيرا لفنون وآداب وعلوم ما كان للبشرية أن تعرفها لولا تلك الهمجية التي ترافقت مع الحضارة الرومانية. وقس على ذلك بالنسبة لكل الإمبراطوريات والحضارات اللاحقة.

في ذات السياق يحلل موران ما يسميه أنطونيو نغري "إمبراطورية العولمة" ليبيّن أن الشّملنة التكنو- اقتصادية التي يقوم عليها النظام الرأسمالي (أو الإمبريالي) الحالي والتي تقوم على "سلعنة الكائن" تترافق بالضرورة مع عولمة أخرى (أو بديلة) قوامها التبادل الحر للأفكار والابتكار المبدع لقيم جديدة تعيد النظر جذريا في علاقاتنا بمحيطنا الإيكولوجي وتؤسس لممكنات جديدة للإقامة في العالم ولمقاومة الأكسيومية الرأسمالية الظافرة والمهيمنة.

ومن المسائل العويصة التي يثيرها موران في هذا الكتاب، ما يتعلّق بالهمجية الأوروبية التي ترافقت – باسم الحضارة - مع الحركة الاستعمارية الكبرى التي شهدها القرنان التاسع عشر والعشرون. فالبرتغاليون والإسبان والبريطانيون والفرنسيون كانوا يدّعون أنهم حاملون لرسالة تمدينية تثقيفية هدفها "النبيل" إخراج تلك الشعوب التي احتلوها من ظلمات الجهل والتخلف التي كانت ترزح تحت نيرها. وباسم ذلك الهدف "النبيل" ذاته ارتكبوا أبشع المجازر. وداخل أوروبا ذاتها يقف موران على أشكال التنكيل والعسف والتقتيل الجماعي التي ذهب ضحيتها مئات الآلاف من السلاف والغجر والمثليين واليهود...الذين لم يكن لهم من ذنب سوى أنهم كانوا "مختلفين". ويثير الكاتب في هذا السياق واحدة من المشاكل التي ما فتئت تشكل موضوع جدال فكري وسياسي وإعلامي في الأوساط الثقافية الأوروبية والأمريكية: محنة اليهود في أوشفيتز. فقد نجحت الدعاية الصهيونية (ذات السطوة الإعلامية الرهيبة) في أن تخمد صوت كل مفكّر حرّ "يجرؤ" على الدعوة إلى معاودة النظر نقديا في حجم الكارثة وفي استتباعاتها الإيديولوجية والجيو-سياسية. أصبحت تهمة "معاداة الساميّة" بطاقة حمراء يرفعها حكم الأخلاق الصهيوني العالمي في وجه كل من يقول مثلا : نعم لقد عانى اليهود (مثلما عانى الغجر والسلاف والمثليون...) عذابات لا توصف بسبب "العقيدة" النازية القائمة على مسلّمة النقاء العرقي وضرورة منع اختلاط الدم، لكن ذلك لا يبرّر ولا يضفي أي شرعية على الممارسات البشعة التي تقوم بها دولة إسرائيل (مدعومة بالآلات الاقتصادية والعسكرية والإعلامية الأمريكية والأوروبية الرهيبة) ضد شعب فلسطين الذي يدافع عن زيتوناته الشاحبة ببعض حجارة وبدفق لا ينفد من الشعر والحب.

لا يتجرّأ موران مع الأسف على قول هذا في كتابه، وإن كان يلمّح إليه بخجل شديد في فصله الثالث. وهي في واقع الأمر نقيصة شائعة لدى العدد الأكبر من المثقفين والمفكرين والمبدعين الأوروبيين والأمريكيين، وحتى لدى أكثرهم نباهة وتقدمية، ربما بسبب تأثرهم الواعي أو اللاواعي بالبروباغندا الصهيونية الطاغية. لذلك يمثل جيل دولوز استثناءا مبدعا في هذا المجال. فهو الوحيد، على حد علمي، الذي أعلن على نحو لا لبس فيه أن إسرائيل قد جعلت من ذاتها دولة فوق القانون وارتكبت في حق الفلسطينيين أبشع المجازر باسم العذابات الرهيبة التي كان اليهود ضحيتها تحت العسف النازي. لقد مارست العصابات الصهيونية مقولة "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" وحوّلت الفلسطينيين أصحاب الأرض إلى "هنود حمر جدد" كما يقول دولوز.

مهما يكن من أمر فإن إدغار موران يثير في هذا الكتاب حزمة من الأسئلة المهمة التي تضعنا إزاء أسئلة فكرية وإيتيقية عميقة لا سيما مسألة الكيفية التي يمكننا بها التصدي للهمجية رغم الإقرار بتلازمها مع الثقافة. ويقترح المنتصر الحملي هنا ترجمة دقيقة وأنيقة تبقي في النص على تألّقه الأصلي في ذات الوقت الذي تصهره في ممكنات اللسان العربي وإبداعيته الخاصة.

الفصل الأوّل

الهمجيّة الإنسانيّة والهمجيّة الأوروبّيّة

أودّ أن أبدأ عملي هذا بوضع ملخّص لأنتروبولوجيا الهمجيّة الإنسانيّة. فطوال أعمالي، حاولت أن أبيّن أنّ الأفكار الرّائجة المتعلّقة بالإنسان العاقل Homo sapiens والإنسان الصّانع Homo faber والإنسان الاقتصاديّ Homo economicus كانت غير كافية : فالإنسان العاقل، ذو الفكر العقلانيّ، يمكنه أن يكون في الوقت نفسه إنسانا معتوها Homo demens، قادرا على الهذيان، على الجنون. والإنسان الصّانع، الّذي يعرف صناعة الأدوات واستعمالها، هو بدوره قادر، منذ بدايات الإنسانيّة، على إنتاج أساطير لا تحصى. أمّا الإنسان الاقتصاديّ، الّذي يتحدّد وفقا لمصلحته الشّخصيّة، فهو أيضا الإنسان اللاّهي Homo ludens ، أي إنسان اللّعب والإنفاق والتّبذير.

لا بدّ من صهر هذه السّمات المتناقضة وربطها ببعضها البعض. بطبيعة الحال، سنجد في جذور ما سنعتبره بمثابة الهمجيّة الإنسانيّة، جانب «العته» ذاك، المنتجَ للهذيان، للكراهية، للاحتقار، ولما كان يسمّيه اليونانيون بالإفراط l'hybris.

يمكننا الاعتقاد أنّ ترياق «العته» موجود في العقل، في «sapiens»، غير أنّ المعقوليّة rationalité لا يمكن تحديدها بطريقة أحاديّة الدّلالة. فنحن نظنّ في كثير من الأحيان أنّنا في دائرة المعقوليّة في حين أنّنا في دائرة العقلنة rationalisation، وهو نظام منطقيّ تماما ولكنّه يفتقر إلى الأساس الخُبَريّ الّذي يثبت صحّته. ونحن نعلم أنّ العقلنة يمكن أن تكون في خدمة الشّهوة، بل وتؤدّي إلى الهذيان. فهناك إذن هذيان المعقوليّة المغلقة.

يخلق الإنسان الصّانع أيضا أساطير هذيانيّة. إذ هو يبعث الحياة في آلهة شرسة وغاشمة تأتي بأعمال همجيّة. وقد استعرت عن تيلار دي شاردان Teilhard de Chardin عبارة المحيط المعرفيّ noosphère الّتي تعني عندي عالم الأفكار والأرواح والآلهة الّتي أنتجها البشر في رحم

ثقافتهم. ورغم أنّ الآلهة قد خلقها الفكر البشريّ، إلاّ أنّها تكتسب حياة خاصّة بها وتحوز على القدرة على السّيطرة على العقول. وبهذا، أوجدت الهمجيّة الإنسانيّة آلهة غاشمة تقوم هي بدورها بتحريض البشر على الهمجيّة. إنّنا نشكّل آلهة تُشكّلنا. على أنّنا لا يمكننا أن نختزل هذا الارتهان للأفكار الدّينيّة في الجانب الهمجيّ وحده. ذلك أنّ الآلهة الّتي تمتلك البشر تستطيع أن تستصدر منهم لا فقط الأعمال الأكثر فظاعة بل وأيضا الأعمال الأكثر روعة.

مثلها مثل الأفكار، ترتدّ التّقنيات على الإنسان الّذي يصنعها. فالأزمنة المعاصرة تعرض علينا تقنية منفلتة من عقالها بانفلاتها من الإنسانيّة الّتي أنتجتها. وها نحن نتصرّف مثل السّحرة المبتدئين. وعلاوة على ذلك، تأتي التّقنية بنفسها بهمجيّتها الخاصّة بها، همجيّة الحساب المحض، البارد، الجامد، المتجاهل للحقائق الوجدانيّة الإنسانيّة تماما.

أمّا ما يتعلّق بالإنسان اللاّهي، فيمكننا أن نلاحظ أنّ له ألعابا فظّة، مثل ألعاب السّيرك أو مصارعة الثّيران ولو أنّ العديد من الألعاب ليس لها طابع همجيّ. وأخيرا، فإنّ الإنسان الاقتصاديّ، الّذي يضع المصلحة الاقتصاديّة فوق كلّ اعتبار، ينزع نحو تبنّي سلوكيات متمركزة حول الذّات تتجاهل الآخر وتطوّر، من هنا بالذّات، همجيّتها الخاصّة بها. وهكذا، نرى ممكنات الهمجيّة وافتراضياتها تظهر في جميع الأوجه المخصوصة بنوعنا البشريّ.

بيد أنّ افتراضيات الهمجيّة تلك ليست هي نفسها في المجتمعات الأولى وفي المجتمعات التّاريخيّة. فالمجتمعات الأولى قد انتشرت في جميع المعمورة منذ عشرات آلاف السّنين. وأنتجت تنوّعا كبيرا في اللّغات والثّقافات والموسيقات والطّقوس والآلهة. وكان لها جميعا سمة مشتركة : هي أنّها مجتمعات صغيرة مكوّنة من بضع مئات من الأفراد المنقطعين للصّيد وللقطاف. مجتمعات مكتفية بذاتها عمليّا، ليست بحاجة إلى غزو أراض مجتمعات أخرى. وهي قد عرفت بالتّأكيد حروبا محلّيّة وربّما أيضا عمليّات قتل.

ليس لتلك المجتمعات أيّ قاسم مشترك مع المجتمعات التّاريخيّة المنبثقة عن ذاك التّحوّل العظيم الّذي بدأ يحدث منذ ثمانية آلاف سنة ربّما، في الشّرق الأوسط وحوض الأنديس بالصّين، ثمّ في المكسيك في الأند. فذاك التّحوّل أوجد الحضارات الكبرى للمجتمعات الّتي تعدّ بآلاف الأفراد بل وبالملايين الّذين يمارسون الفلاحة ويبنون المدن وينشئون الدّول والدّيانات الكبرى ويخترعون الجيوش ويطوّرون التّقنيات بشكل كبير. وحتّى لو وجدت في المجتمعات الأولى مظاهر للهمجيّة يمكن أن تميّزها، فالمجتمعات التّاريخيّة هي الّتي نرى فيها بروزا لمعالم همجيّة مرتبطة بسلطة الدّولة وبالإفراط الجنونيّ. فكانت الغزوات في سبيل تأمين الموادّ الأوّليّة أو الاحتياطات الغذائيّة تحسّبا لأوقات الجفاف أو لوابل المطر. بل إنّ ما حدث بصفة خاصّة هو انطلاق غزوات تهدف إلى ما هو أبعد من مجرّد الحاجة الحيويّة تتجلّى في المذابح والتّحطيم النّسقيّ والنّهب والاغتصاب والاستعباد. هناك إذن همجيّة تشكّلت وانطلقت مع الحضارة.

فضلا عن ذلك، تتميّز هذه المجتمعات الكبرى بتطوّر حضريّ غير مسبوق، فهي تشكّل مدنا كبابل يتجمّع فيها سكّان مختلفون، وطبقات شتّى قائمة على هيمنة الأسياد والاستعباد المعمّم. وفي قاعها، ينمو الانحراف والإجرام. في المجتمعات الأولى، الضّيّقة ديمغرافيّا، كان معظم الأفراد مندمجين في المجموعة، وكان على الهامشيّة أن تكون استثناء. كان يخيّم عليها نوع من أنا أعلى المجموعة، خاصّة أنّ تلك المجتمعات كانت تديرها أسطورة السّلف المشترك الّتي تحضّ على الأخوّة بين جميع أعضائها.

في الإمبراطوريات الكبرى، في المدن- الدّول، نمت بذور الانحراف والإجرام. ونرى فيها ظهورا لآلهة شرسة ومحاربة، آلهة تنادي باستئصال العدوّ. من جهة أخرى، إنّ همجيّة الحرب غير منفصلة عن الأزمنة التّاريخيّة. فتاريخ المجتمعات الكبرى هو تاريخ الحروب المتواصلة، كما بيّن ذلك غاستون بوتول، مؤسّس علم الحروب polémologie. ولكنّ هذه المجتمعات الّتي أنتجت الهمجيّة أنتجت في الوقت نفسه ازدهار الفنون والثّقافة، وتطوّر المعرفة، وبروز نخبة مثقّفة. فالهمجيّة إذن هي بمثابة مقوّم من مقوّمات الحضارات الكبرى. ومثلما وضّح ذلك والتر بنيامين، لا وجود

لعلامة حضارة أو فعل حضارة لا يكون في الآن ذاته فعل همجيّة. وهنا، يفرض سؤال نفسه علينا : إذا كان يمكننا ويجب علينا مقاومة الهمجيّة بل ومحاولة قمعها، أليست هي مقوّم من مقوّمات الحضارة لن نستطيع إلغاءه أبدا؟

ليست الهمجيّة عنصرا مرافقا للحضارة فحسب، بل هي جزء منها لا يتجزّأ. فالحضارة تنتج الهمجيّة، وخصوصا الغزو والهيمنة. الغزو الرّوماني مثلا، كان أكثر الغزوات همجيّة في التّاريخ القديم: من نهب لكورنثية، وحصار لنومينس بأسبانيا، وتدمير لقرطاج، الخ. وذلك على الرّغم من أنّ الثّقافة اليونانيّة قد تسرّبت إلى داخل العالم الرّومانيّ الّذي صار إمبراطورية. من هنا كانت المقولة الشّهيرة للشّاعر اليونانيّ: «غعلبت اليونان المغلوبة غالبها الشّرس». وهكذا أنتجت الهمجيّة الحضارة.

لقد أفضى الغزو الرّومانيّ الهمجيّ إلى حضارة كبيرة. ففي 212، منح مرسوم كاراكلاّ المواطنة الرّومانيّة لجميع الرّعايا الخاضعين لهذه الإمبراطوريّة الفسيحة الّتي تشمل أفريقيا الشّماليّة وقسما كبيرا من أوروبّا الغربيّة وأنجلترا.

ولو أبحت لنفسي فتح قوسين- ذلك أنّني لا ألزم نفسي هنا بخطاب خطّيّ بل أدعوكم إلى التّفكير في لحظات تاريخيّة - فإنّي أودّ أن أذكّركم بأنّ سيمون فايل، في مقال لها في «الدّفاتر الجديدة» نشر عشيّة الحرب العالميّة الثّانية، كانت تتكهّن بأن يحدث الأمر نفسه في الإمبراطوريّة الأوروبّيّة بعد الغزو النّازيّ. كانت تتوقّع انتصار ألمانيا، وازدهار الحضارات بعد قرنين على شاكلة ذاك الّذي أنتجته روما. على أنّ ذلك لم يمنعها كما تعلمون من الانخراط بقناعة في المقاومة. ولكنّ هذه الفكرة قد ألهمت اشتراكيين وسلميين، صاروا متعاونين معا في بداية الحرب، في لحظة لم تصبح فيها بعد عالميّة، ولكن كان الاعتقاد فيها بأنّ ألمانيا النّازيّة سوف تهيمن طويلا على أوروبّا. كان الكثير يعتقد بشكل تراجيديّ أنّه بتعاونه مع ألمانيا الهتلريّة إنّما يساعد على إيجاد أوروبّا اشتراكيّة.

ألمحت إلى ذاك المقال لأنّه أثّر فيّ أنا أيضا لا فيما يتعلّق بألمانيا النّازيّة، بل بالإتّحاد السّوفييتيّ. سنة 1942، وحينها كنت في الواحدة والعشرين من العمر، كنت قد عرفت بعد أبشع وجوه الإتّحاد السّوفييتيّ، ولم أنس محاكمات موسكو، وقرأت لتروتسكي وسوفارين. لكنّي كنت أرى أنّ انتصار الإتّحاد السّوفييتيّ سوف يسمح للبذور الّتي تتضمّنها الإيديولوجيا الاشتراكيّة، وهي الإيديولوجيا الجماعيّة والعادلة والتّحرّريّة، بأن تتفتّح في حقبة رائعة من التّناغم الاجتماعيّ. ولكنّ أوهامي بدأت تخيب مع الحرب الباردة وعودة التّجميد السّتالينيّ. وأنا اليوم، لا أستطيع أن أزيح فكرة أنّ الإتّحاد السّوفييتيّ ربّما كان بإمكانه أن ينعش مع مرور الزّمن مُثُل وبواعث حضارة قامت همجيّته منذ الوهلة الأولى بخنقها. إنّ الغزوات الهمجيّة يمكنها أن تؤدّي إلى ازدهار حضارة، ولكنّ هذا بطبيعة الحال لا يعني أنّ تلك الهمجيّات الأصليّة ينبغي بالنّظر إلى الماضي أن يقع تبريرها أو أن يلفّها النّسيان.

توجد أيضا همجيّة دينيّة يجدر بنا التّطرّق إليها الآن. في العصور القديمة، كان لكلّ شعب من شعوب الشّرق الأوسط إله حرب خاصّ به، إله لا يرحم الأعداء. غير أنّ تعدّد الآلهة في اليونان وفي روما القديمة، سمح للآلهة المختلفة بأن تتعايش جنبا إلى جنب. فالدّيانة التّعدّديّة اليونانيّة احتضنت إلها همجيّا على ما يبدو، عنيفا، إله السّكر والإفراط، إنّه دينوزيس. وتظهر رائعة أوريبيد : «الكاهنات الباخوسيات» القدوم الجارف والمجنون لهذا الإله. ومع ذلك، انضمّ دينوزوس إلى مجتمع الآلهة الإغريق. عندما تساءل نيتشه في القرن العشرين عن أصل التّراجيديا، شدّد على الطّابع المزدوج الّذي كان يسم الميثولوجيا اليونانيّة. فمن جهة يوجد أبولّون، رمز الاعتدال، ومن جهة أخرى يوجد دينوزيس، رمز الإفراط. هذه هي الثّنائيّة والتّكامليّة بين أبولّون ودينوزيس الّتي يوضّحها قول هيرقليطس : «وحّدوا بين ما يتّفق وما لا يتّفق».

قبل ظهور المسيحيّة، كانت الإمبراطوريّة الرّومانيّة تتميّز بالتّسامح الدّينيّ. فالعبادات الأكثر تنوّعا بما فيها عبادة آلهة الخلاص، مثل عبادة أوزيريس وعبادة ميثرا والإيروفيوسيّة، كانت مقبولة تماما. وجاءت

الدّيانة التّوحيديّة اليهوديّة ومن بعدها المسيحيّة فحملت معها، إلى جانب كونيتها الكامنة، تعصّبها الخاصّ بها، بل يمكن أن أقول همجيّتها الخاصّة بها، القائمة على احتكار حقيقة الوحي. بالفعل، لم يكن بوسع اليهوديّة أن تفهم الآلهة الرّومانيّة إلاّ باعتبارها أصناما مدنّسة. ولم يكن بإمكان المسيحيّة، من خلال دعوتها ذات الطّموح الكونيّ، إلاّ أن تقوّي من هذا التّوجّه. وبينما كان بوسع اليهوديّة أن تستمرّ من داخلها في التّحالف المفضّل الّذي تعتقد انّه موجود بينها والله، سعت المسيحيّة في آخر الأمر إلى نسف الآلهة والدّيانات الأخرى. فضلا عن ذلك، ومنذ اللّحظة الّتي اعترف بها باعتبارها دين الدّولة الوحيد، تسبّبت في غلق مدرسة أثينا، ووضعت بذلك حدّا لكلّ فلسفة مستقلّة.

كان أحد أسلحة الهمجيّة المسيحيّة توظيف الشّيطان. وينبغي أن نرى ضمن هذه الصّورة طبعا الشّخص المفرّق، المتمرّد، الجاحد، عدوّ الرّبّ والبشريّة اللّدود. ومن لا يوافق ولا يريد أن يتراجع عن اختلافه، فقد سكنه الشّيطان لا محالة. إنّه بمثل هذه الآلة الحجاجيّة الهذيانيّة، من بين آلات أخرى، مارست المسيحيّة همجيّتها. بطبيعة الحال، ليس السّلاح الشّيطانيّ حكرا على المسيحيّة، فها نحن نرى اليوم جيّدا أنّ الشّيطان قد عاد أكثر من قبل في الخطاب الإسلامويّ المتحمّس.

ختاما، أثارت المسيحيّة المظفّرة في صلبها تيّارات فكريّة شتّى وتأويلات متنوّعة للرّسالة الأصليّة. وبدلا من أن تتسامح معها، ردّت الفعل بإنشاء أورتودوكسيّة غاشمة، أدانت الانحرافات باعتبارها هرطقات، واضطهدتها ونسفتها بحقد، باسم ديانة الحبّ بالذّات.

هذه الملاحظات الثّلاث تبيّن أنّ أوروبّا وإن لم تحتكر الهمجيّة، إلاّ أنّها قد أظهرت كلّ أشكال الهمجيّة الخاصّة بالمجتمعات التّاريخيّة الّتي تحدّثت عنها. وفوق ذلك، مارستها بطريقة أكثر ديمومة وكثافة ومن دون شكّ أكثر تجديدا. هذا التّجديد في الهمجيّة مرتبط بتشكّل الأمم الأوروبّيّة الحديثة : إسبانيا، فرنسا، البرتغال، أنجلترا. إنّ الأمم تختلف جوهريّا عن الإمبراطوريات والمدن ـ الدّول. فهي أوّلا تضمّ سكّانا متنوّعين أكثر ممّا تضمّه المدن ـ الدّول. فأمّة كفرنسا مثلا تتوحّد داخلها أعراق متنوّعة لافتة للنّظر. أمّا

اختلافها الحقيقيّ ثانيا مع الإمبراطوريّة فيتصل بالنّشاط الإدماجيّ للدّولة - الأمّة الّذي يوحّد عناصرها المختلفة في هويّة وطنيّة واحدة.

هناك حالة مثاليّة هي حالة أسبانيا حيث كان يتوفّر في المنطقة المسلمة، أي الأندلس، تسامح إزاء المسيحيين واليهود، و تسامح في المنطقة المسيحيّة إزاء المسلمين واليهود، واستمرّ ذلك حتّى سنة 1492. فما الّذي حدث في تلك السّنة الغريبة؟ هي ليست فقط سنة اكتشاف أمريكا وبداية غزو العالم الجديد، بل هي أيضا سنة سقوط غرناطة، آخر قلعة مسلمة في أسبانيا، وهي بعد ذلك بقليل، سنة المرسوم الّذي أجبر اليهود والمسلمين على أن يختاروا بين اعتناق المسيحيّة أو النّفي. فهذا الاختراع الأوروبّيّ المتمثّل في الأمّة قام في بدايته إذن على قاعدة التّطهير الدّينيّ.

هذا التّطهير سينزع تدريجيّا نحو اكتساب طابع عرقيّ. في أسبانيا دائما، في بداية القرن السّابع عشر، أي بعد قرنين من المرسوم الّذي كان يجبر اليهود والمسلمين على الاختيار بين المسيحيّة أو النّفي، كان هناك، وخاصّة في الأندلس، سكّان كثيرون من الموريسكيين. إنّهم المغاربة الّذين أعلنوا تحوّلهم إلى الكاثوليكيّة، ولكنّهم ظلّوا في السّرّ يمارسون عباداتهم داخل ملكيات خاصّة. كان اللاّتيفنديون les latifundistes، أي الأسياد المالكين، يتسامحون مع ذلك أو يغضّون الطّرف. وفي بعض الأكواخ الّتي تحوّلت سريعا إلى مساجد، كان بالإمكان ممارسة بقيّة من الشّعائر الإسلاميّة. أمّا بالنّسبة إلى التّفتيش، فالتّسامح مستحيل. لنلاحظ من جهة أخرى أنّ التّفتيش لم يمارس بنفسه مبدأ التّطهير العرقيّ. فقد كان يطارد اليهود المتنصّرين الّذين يمارسون اليهوديّة سرّا أو المسلمين المتنصّرين الّذين يمارسون الإسلام سرّا أيضا. ولكنّه حينما كان بمقدوره أن يثبت صدق إيمانهم المسيحيّ، كان يعترف لهم بجميع الحقوق الّتي للمسيحيين. وبفعل ضغط جديد من التّعصّب، نجحوا في ترحيل الموريسكيين. وكانوا يفصلون بين الزّوجات وأزواجهم الّذين كانوا يبعدون ويشحنون في اتّجاه شمال إفريقيا. وهكذا انتقلوا من التّطهير الدّينيّ إلى التّطهير العرقيّ- الدّينيّ. في قسم من الأرستقراطيّة والبرجوازيّة الأسبانيّتين، تضخّمت نزعة إرادة فرض نقاوة الدّم limpieza del sangre، وهو مفهوم عرقيّ، عنصريّ. ولكنّ الملوك الأسبان لم يتوخّوا

ذلك ولم تكن نقاوة الدّم أبدا رسميّة. وإنّي أوضّح أنّ التّفتيش لم يكن حقّا هو من أتى بهذه الفكرة. فما كان يسعى إليه إنّما هي النّقاوة الدّينيّة وحدها، غير أنّ هذه النّقاوة أخذت تقترن بأخرى، وبدأ تعصّب يطلع من تحت آخر.

سأعود لاحقا إلى نتيجة من نتائج محاولة التّطهير الدّينيّ تلك في أسبانيا، وهي نتيجة خفيّة ولكنّها عميقة جدّا، تميّزت بظاهرة المبدّلين دينهم conversos المسمّين تحقيرا مرّانيين Marranos أي الخنازير.

ولنسجّل ختاما لهذه النّقطة أنّ التّعصّب الدّينيّ الإسبانيّ قد هاج أثناء فتوحات أمريكا، وأدّى إلى تقويض كلّ الدّيانات الما قبل كولومبيّة.

طبعا من الممكن أن نعتبر أنّ مبدأ التّطهير الدّينيّ يجد بذوره في انتصار المسيحيّة في الإمبراطوريّة الرّومانيّة. ولكنّ ما حصل هو أنّ هذا المبدأ سيجد الدّعم الكبير مع ظهور الدّولة- الأمّة، إلى درجة أنّ الحروب الدّينيّة الّتي ستندلع في القرن السّادس عشر، عقب إصلاح لوثر وكالفين Calvin ، ستكون حروبا أهليّة قبل أن تصبح حروبا بين أمم أيضا. ستنتهي هذه الحروب بمعاهدات واست فالي الّتي ستقوّي النّزعة الطّاغية في كلّ أمّة إلى التّطهير الدّينيّ. فتلك المعاهدات كانت تضع ديانة الملك ديانة الدّولة، وكان هذا مبدأ مهمّا لألمانيا الّتي كانت منقسمة إلى إمارات. وفي أنجلترا، ستقوم الأنجليكانيّة على إقصاء الكاثوليكيّة ممّا اضطرّ الكثير من الكاثوليكيين في القرن السّادس عشر إلى الهجرة نحو ليفورن أو فرنسا. بلا شكّ، كان هناك استثناء فرنسيّ، ولكنّه مؤقّت، يتمثّل في مرسوم نانت الّذي وقّع عليه سنة 1598 هنري الرّابع. هو مؤقّت لأنّه تمّ اختراقه بقسوة من خلال التّعذيب الّذي مارسه الجنود الخيّالة والتّضييق على حقوق البروتستانت تحت حكم لويس الرّابع عشر. وكما تعلمون، سيقع إلغاء ذاك المرسوم سنة 1685، ممّا ستنجرّ عنه عواقب مأساويّة عديدة.

في مدن هولندا الّتي لم تكن منظّمة وفق مبدأ الأمّة، استمرّ التّسامح الدّينيّ، بالخصوص في أمستردام، حيث كان من الممكن حتّى عدم ممارسة أيّة ديانة. كالفينيون ولوثريون وكاثوليكيون ويهود، جميعهم كانوا فيها يتعايشون. سبينوزا نفسه، حين تمّ فصله من المعبد، لم يرتبط ثانية بأيّة

ديانة واستطاع العيش بكلّ استقلاليّة. وفيما بعد، تمّ طبع الكثير من الكتب الّتي منعتها الرّقابة الفرنسيّة بأمستردام، واستمرّ ذلك حتّى نهاية القرن الثّامن عشر.

بوسعنا أن نعتبر ظواهر التّطهير تلك بمثابة الأمراض الطّفوليّة للأمم الغربيّة الحديثة. غير أنّ هذه الأمم سوف تعرف إنتاج ترياق هذ السّمّ. إذ انطلاقا من الثّورة الفرنسيّة، سيظهر مفهوم جديد للأمّة مستوحى من الأنوار. ففي 14 جويلية 1790، أي سنة واحدة بعد الاستيلاء على الباستيل، ذهب نوّاب جميع المقاطعات الفرنّسيّة إلى المهرجان الكبير للفيدراليات، معبّرين بذلك عن عزمهم المشترك على أن يكونوا أعضاء منضوين في الأمّة الكبيرة: إنّ أمّة مثل فرنسا تمّ تمثّلها باعتبارها نتاجا لإرادة مشتركة. وتطوّرت فكرة الرّوح المشتركة والإرادة المشتركة، وهو ما أكّد عليه العديد من المفكّرين في القرن التّاسع عشر، مثل رايـنان الّذي يرى أنّ «وجود أمّة هو استفتاء شعبيّ عامّ لكلّ الأيّام». وقد تدعّمت هذه الفكرة في تعارض مع نظريات الفلاسفة الألمان مثل هيردر Herder وفيشته Fichte الّذين كانوا يؤكّدون بالأحرى على الأرض واللّغة والثّقافة في تعريفهم لأمّة ما. وسنعثر من جديد على هذا التّعارض في النّزاع الفرنسيّ الألمانيّ على الألزاس ـ لورّان. فبالنّسبة إلى الفرنسيين، كان الألزاس والألزاسيون فرنسيين بالإرادة، بالرّوح الفرنسيّة الّتي كانوا يحملونها فيهم، أمّا الألمان، فكانوا يصرّون على أنّ أولئك كانوا من إتنيّة وثقافة ألمانيّتين، وبالتّالي فهم ألمان.

على أيّة حال، ظهرت إلى الوجود فكرة حديثة عن الأمّة مستوحاة بقوّة من التّصوّر الثّوريّ: دمج الأعراق المختلفة عن طريق التّربية والعلمانيّة ووسائل الاتّصال و تطوير الطّرقات والسّكك الحديديّة، ولكن ، وهذا لا يجب نسيانه، عن طريق الحروب أيضا. فالحروب تدمج الأعراق الأكثر تنافرا في رحم مجموعة وطنيّة واحدة من خلال كراهيّة العدوّ. لننظر مليّا إلى البروتونيين Bretons : إنّ وعي بيـڤودان مّا Bigoudin كان، وما يزال بشكل من الأشكال، يتحدّد بمقارنته مع الكابيست Capistes، أي بمقارنته مع الشّعب الجار. فحين يلتحق بالجيش، سيسمعهم ينادونه بـ «البروتوني». أي أنّ الهويّة الّتي كانت بالنّسبة إليه نائيّة ومجرّدة ستصبح ملموسة وسيكتشف

بالخصوص جزءا من هذه التّركيبة الّتي تشكّله : أنّه بروتوني وفرنسي. وبهذا، ساهمت الحروب في الاندماج.

بطبيعة الحال، لم تتخلّص أوروبّا بكلّ يسر من المشاكل العرقيّة ـ الدّينيّة ومن صلاتها بتصوّر معيّن للأمّة. وقضيّة ايرلندا الشّماليّة، الّتي هي قيد الحلّ، توضّح ذلك بما فيه الكفاية. واليوم، مازالت قضايا بلدان الباسك و قبرص مطروحة أيضا، ولكنّها من دون شكّ هامشيّة وثانويّة.

لقد سمح لنا القرن العشرون بأن نقيس الهمجيّة النّاجمة عن مفهوم الأمّة حين يكون قائما على إرادة التّطهير العرقيّ. بالطّبع لا يمكننا اختزال الأمّة في نتائجها الهمجيّة، بما أنّها كذلك عامل اندماج بين الأعراق. ورغم كلّ شيء، اخترع القرن العشرون فظاعة الأمّة الأحاديّة العرق. ففي الإمبراطوريات الّتي كانت تسود أوروبّا الوسطى ، وأوروبّا الشّرقيّة في بداية القرن العشرين، سواء منها النّمساويّة ـ المجريّة أو العثمانيّة أو القيصريّة، كانت هناك قوى إدماج وتوافق بين الشّعوب تمارس عملها. في الإمبراطوريّة العثمانيّة مثلا، كانت هناك ممارسة للتّسامح الدّينيّ لا لإرادة فرض التّبديل الدّينيّ المحمومة. ذلك أنّ نمط الحكم الّذي كان يفرض أن تجبى الضّرائب من قبل السّلطة الدّينيّة كان يسمح لليهود والكاثوليكيين بأن يتعايشوا في نفس المدينة. وتعتبر سراييفو المثال الرّائع على اجتماع الكاثوليكيين الكروات والأورتدوكس الصّرب واليهود السّافاريد والسّلاف المعتنقين للإسلام. هذه الخاصّيّة المتعدّدة الأعراق، هذا المزيج من الثّقافات، الّذي يبدو لنا سمة إيجابيّة للإمبراطوريّة العثمانيّة، تبدّى كارثيّا بعد تفكّكها. أمّا عن الإمبراطوريّة النّمساويّة ـ المجريّة، فقد كانت قبل الحرب العالميّة الأولى تمضي رويدا رويدا، رغم جميع الفتن والقلاقل بين شعوبها وبسببها ، نحو الاعتراف بنوع من الاستقلاليّة والتّعايش السّلميّ بين القوميات: المجريّة والتشيكيّة والكرواتيّة. ولكن، مع الأسف، تسبّبت إرادة المنتصرين، وفرنسا بالخصوص، في تصدّع تلك الموازنات. كان كليمنصو واثقا من أنّ المجموعة النّمساويّة ـ المجريّة كانت معقل الكاثوليكيّة. ففرض المنتصرون دستور الأمم الّتي، بسبب تفجّرها وبسبب التّقسيمات الاعتباطيّة، وجدت نفسها فجأة منغمسة في منطق الأمم الحديثة المتعدّدة الأعراق (أمّا صربيا واليونان، فقد تحرّرتا قبل ذلك منذ

القرن التّاسع عشر). في حين أنّ كلّ واحدة منها أرادت، وهي المتركّبة من أقلّيات عرقيّة هامّة، أن تبني نفسها في شكل أحاديّ العرق.

وصف المؤرّخ توينبي Toynbee، الشّاهد عل الحرب اليونانيّة ـ التّركيّة سنة 1921، تصدير التّصوّر الغربيّ للأمّة إلى تلك المناطق بالكارثة. ففي تلك الحرب، حدث تطهير عرقيّ مضاعف، تركيّ ويونانيّ. قام الأتراك بطرد أعداد كبيرة من السّكّان اليونانيين الموجودين في آسيا الصّغرى وهم الّذين كانوا يعيشون فيها منذ العصور القديمة، وحملوهم إلى مقدونيا. بينما نقلوا السّكّان الأتراك بمقدونيا إلى تركيا.

سنة 1990 لم تكتمل بلا شكّ الأمّة اليوغسلافيّة في مسار اندماج شعوبها الّتي كانت تتشكّل منها، بيد أنّ هذا المسار كان بصدد الحدوث. صحيح أنّه كان تحت نير ديكتاتوريّة ويصحّ اعتباره مفروضا من الكليانيّة، وإن كانت كليانيّة معدّلة بعد قطيعتها مع الإتّحاد السّوفييتيّ. هذه الأمّة غير المكتملة البناء تفكّكت إلى ثلاث أمم في خضمّ انفلات همجيّة حربيّة وفظيعة. كان التّطهير العرقيّ يشمل على حدّ سواء الصّرب والكروات الّذين أطردوا عددا كبيرا من السّكّان الصّرب. أمّا في سراييفو، فقد ظلّ نوع من تعدّد الأعراق، فهناك صرب مازالوا يلعبون دورا مهمّا في السّلطة، والصّحافة، الخ. لكنّ الأكيد هو أنّ داء التّطهير العرقيّ يعود بطريقة سلميّة، من خلال الفصل بين التّشيك والسلوفاك.

أنا لا أتحدّث هنا خصّيصا عن التّطهير النّازيّ، وهو موضوع الفصل الثّالث، هذا التّطهير الّذي يمكن اعتباره قمّة الهجاس التّطهيريّ عند أمّة من الأمم والّذي يستمدّ جذوره مع الأسف من التّاريخ الأوروبّيّ. إلاّ أنّي أشير إلى أنّه إثر انتصار الأحلاف سنة 1945، قد لوحظت ظواهر من التّطهير العرقيّ للسّكّان الألمان، الّذين نقلوا من سيليزيا الّتي صارت بولونيّة، ومن هضاب سيداتس الّتي عادت إلى التّشيك. بل إنّ بولونيين بدورهم قد نقلوا من المناطق الأوكرانيّة الّتي ضمّها الإتّحاد السّوفييتيّ إليه. ومازالت إلى اليوم أقلّيات في أممنا الغربيّة مقتنعة بأنّ حضور الأجانب المهاجرين المجنّسين يدنّس الهويّة القوميّة. فكره الأجانب ومعاداة اليهوديّة مازالا موجودين رغم الإدماج الأوروبّيّ. إنّ القوميات الشّوفينيّة القائمة على فكرة النّقاء لم تمت.

فلئن يبدو أنّ حركة هايدر في النّمسا، والحركات النّازيّة الجديدة في كلّ من ألمانيا وهولندا وفرنسا هامشيّة، وأقلّيّة، ولكنّها تستطيع أن تصبح مهمّة في حالة الأزمة. علينا أن نتذكّر أنّه، أثناء أزمة 1929 الكبرى، الّتي كانت عنيفة جدّا في ألمانيا سنة 1931، تمكّن حزب صغير هو الحزب النّازيّ الّذي لم يكن ليطمح في الأوقات العاديّة أن يتجاوز 15 أو 18% من الأصوات، من الحصول على 35% منها.

إنّ النّزعات الهمجيّة تجاور النّزعات التّمدينيّة. وكما نشأت أشكال محضة من الحضارة في الإمبراطوريات الّتي كانت تهيمن فيها همجيّة الغزو الحربيّ، فكذلك هو الحال في الأمم،حيث نلاحظ إلى جوار نزعاتها التّطهيريّة ازدهارا للفنون والثقافة والمعرفة. وهكذا، أنجبت أسبانيا المطهّرة في عصر التّنوير لوبي دي فيڤا وكالديرون وڤونـڤورا وكوكبة من كبار الفنّانين. كما أنّ فرنسا «المطهّرة» إثر مرسوم نانت هي مع ذلك بلد كبار الكّتّاب الكلاسيكيين. أبدا لن أنسى هذا الوجه المزدوج للحضارة، أعني في الواقع تعقّدها.

أنتقل الآن إلى ما سمّيته منذ حين «همجيّة الغزو الحربيّ». إنّها تعود إلى الألفيّة الأولى، ولكنّها وجدت أشكالها الحديثة في الاستعمار. يمكننا أن نعتبر على سبيل التّبسيط أنّها قد بدأت مع غزوات الإسكندر. ولكنّ هذه الأخيرة لم تكن همجيّة بأتمّ معنى الكلمة. فقد كان الإسكندر يحترم آلهة الحضارات المختلفة الّتي قام بغزوها. وكان في كلّ مدينة يزوّج المئات من جنوده من فتيات البلد، مهيّأ بذلك لحضارة مختلطة الأعراق. لكنّ مثال الإسكندر يبقى مثالا استثنائيّا تماما. لأنّ كبار الفاتحين الآخرين كانوا مرعبين. فجنكيز خان، هذا الفاتح المغوليّ في أواخر القرن الثّاني عشر وبداية القرن الثّالث عشر، زرع الموت والخراب سواء في الشّرق وبالصّين تحديدا أو في الغرب، وأسّس إمبراطوريّة شاسعة الأطراف. بيد أنّ تلك الإمبراطوريات الشّاسعة لا يمكنها أن تدوم. فلأنّها بالتّحديد ممتدّة الأطراف، لم يكن عامل الاندماج متوفّرا فيها. فلم تدم إمبراطوريّة جنكيز خان سوى قرن من الزّمن، أمّا تيمورلنك (1336- 1405) فقد أسّس بعد قرن من الزّمان إمبراطوريّة رائعة سرعان ما قسّمها بين أبنائه الأربعة.

كانت مهمّة الغزو الّتي نفّذتها الأمم الأوروبّيّة من نوع آخر وكانت بالخصوص ممتدّة في الزّمن. وما ساعدها على ذلك هو تفوّقها العسكريّ الّذي كانت الأسلحة النّاريّة تحقّقه لها. وهكذا، تسبّبت زمرة من الخيّالة ومن الرّجال المسلّحين في انهيار إمبراطوريّة هائلة في البيرو كانت تمتدّ من شمال الأيكواتور حتّى جنوب الشّيلي. أمّا غزو المكسيك، فكان أكثر تعقيدا. فقد استعان كورتيس Cortés بشكل ما باستراتيجيا الاختلاط العرقيّ. إذ تحالف مع قوميات مضطهدة من الآستاك les Aztèques، ومستاءة بسبب تسليم قبيلتها إلى هؤلاء وخاصّة بسبب دفع أبنائها كقرابين. بل إنّ البعض قال إنّ المكسيك قد فتحها المكسيكيون. فاستطاعت فرقة كورتيس الصّغيرة، الّذي هو نفسه كان متزوّجا من امرأة هنديّة هي "لا مالانش la Malinche"، أن تنتفع بعد حوادث مختلفة بمساعدة أولئك السكّان. ولكنّ هذه الغزوة بدورها كان يحرّكها جشع وتعصّب لا مثيل لهما.

كان هذا الجشع يتغذّى من أسطورة الألدورادو. فلأنّهم عثروا على قشور من الذّهب على جدران معابد كوزكو Cuzco في البيرو، طمعوا في الكشف عن منابعها الخرافيّة، وهذا ما يشهد عليه مثلا ذاك الفيلم الرّائع لهرزوغ Herzog : «آڤوير، أو غضب الرّبّ». ولم يكن التّعصّب الدّينيّ أقلّ حدّة، فقد هدّمت أوثان الأنكا وخرّبت. ومن جهة أخرى، تسبّب الغزو، بالإضافة إلى المذابح الّتي لم تغب عن المشهد، في نسبة وفايات كارثيّة، في المكسيك والبيرو على حدّ سواء. وفايات كانت ناجمة عن انتقال الأمراض الأوروبّيّة، مثل السّلّ، الّتي لم يكن السّكّان المحلّيون محصّنين ضدّها. وهكذا، عوض أن تقع مبادلات ثقافيّة بين الطّرفين، وقع تبادل الجراثيم والفيروسات. ففي مقابل السّلّ، وصل مرض الزّهريّ إلى الغرب، وانتهى عن طريق القوافل، إلى الصّين. وقد تسبّب الكحول أيضا في مصائب جمّة، فمنذ ستّة أو ثمانية آلاف سنة، قضى الانتقاء الطّبيعيّ في القارّة العجوز على الأجسام الّتي لم تصمد ضدّ الكحول، ولكنّ ذلك لم يحصل بطبيعة الحال عند شعوب أمريكا الشّماليّة المسكينة. كان هناك سبب آخر لتلك الوفايات الجماعيّة وهي العبوديّة بالطّبع. فقد وقع استغلال السّكّان الأصليين استغلالا فاحشا في استخراج الفضّة من المناجم وفي حمل الـڤاليونات الملآنة ذهبا وفضّة إلى أسبانيا.

لمواجهة مثل هذا الانخفاض الدّيمغرافيّ، التجأ الغزاة إلى التّجارة الجماعيّة بالعبيد السّود. فقد كان استعباد السّود واقعة شاملة لكلّ القارّة الأمريكيّة تقريبا. وكما تعلمون، كان استمرار العبوديّة في ولايات جنوب الولايات المتّحدة أحد أسباب حرب الانفصال. وفي فرنسا، لن يتمّ إلغاء العبوديّة إلاّ سنة 1848 بفضل فيكتور شولشاي Victor Schœlcher. ولكنّ بقاياها مع ذلك ظلّت مستمرّة. أمّا عن الاستعمار، فإنّه لم يزُل إلاّ في نهاية القرن العشرين. في الأثناء، عربد المستعمرون الأنجليز والفرنسيون وأيضا الألمان والبرتغاليون في أفريقيا بالخصوص. وقد قام أندريه جيد أثناء رحلته في الكونغو برواية الطّريقة الشّنيعة الّتي كان يتمّ بها تقريبا استعباد السّود العاملين في سكك الحديد الكونغو- المحيط. إنّ هذه الهمجيّة الاستعماريّة الوحشيّة ستستمرّ في فرنسا حتّى في وضح القرن العشرين، همجيّة تشهد عليها مجزرة سطيف الّتي اقترفت في ذات اليوم الّذي انتهت فيه الحرب أي يوم 8 ماي 1945، وتشهد عليها أيضا أعمال العنف المسلّطة على الأهالي خلال حرب الجزائر.

في آخر المطاف، نلاحظ هيجانا لخمسة قرون من الهمجيّة الأوروبّيّة، خمسة قرون من الغزوات، من الاستعباد، من الاستعمار. بطبيعة الحال، لابدّ من القول مجدّدا إنّ الهمجيّة قد رافقتها، بل إنّها هي نفسها قد حثّت على أعمال حضاريّة. فطوال هذه العولمة من الهمجيّة الأوروبّيّة جرى اختلاط بين الثّقافات ومبادلات ولقاءات خلاّقة. يدور اليوم جدال حول توجّه يرمي إلى أن تذكر في كتب التّاريخ المختصرة الخاصّيات الإيجابيّة للاستعمار الفرنسيّ في الجزائر وغيرها من المستعمرات الإفريقيّة السّابقة. ولكنّ المسألة هي معرفة هل أنّ هذه الخاصّيات الإيجابيّة تأتي في المستوى الأوّل أم أنّها ظواهر ثانويّة وحسب. مثل هذا السّؤال ينبغي أن يعاد طرحه في إطار عامّ. فلا بدّ من تبيين الازدواجيّة والتّعقّد في ما يندرج ضمن الهمجيّة، في ما يندرج ضمن الحضارة، ليس بطبيعة الحال من أجل تبرير أفعال الهمجيّة بل لفهمهما أفضل وبالتّالي لتجنّب أن تستوليا علينا بطريقة عمياء.

أودّ أن أختم بشكل آخر من الهمجيّة مازال إلى اليوم قائم الذّات. إنّ المجتمعات التّاريخيّة الّتي تحدّثت عنها كانت قد تشكّلت عن طريق القضاء

التّدريجيّ على المجتمعات التّقليديّة الصّغيرة الّتي سبقتها. ولكنّ التّدمير الإباديّ للبشريّة التّقليديّة وللشّعوب الّتي ليس لها دول قد جرى مع الانطلاقة العالميّة للحضارة الغربيّة. ففي تسمانيا، تمّ القضاء على السّكّان الأصليين. وفي أستراليا، صاروا اليوم بقايا. وفي أمريكا الجنوبيّة، في جنوب الشّيلي، وقع محق الألاكالوف، شعب رحّل البحر الّذين كانوا يستقبلون البحّارة عندما يعبرون في القرنين السّابع عشر والثّامن عشر. وفي أمريكا الشّماليّة، فإنّ السّكّان الهنود، بعد أن تمّ خداعهم بما أنّ المعاهدات الّتي أبرموها مع السّلطة السّياسيّة لم تُطبّق، تمّ اليوم زربهم وعزلهم في معازل. ولكن من جانب آخر، تقوم «جمعيّة الصّمود الدّوليّ» بالدّفاع عن حقوقهم دفاعا قويّا ومشروعا. وفي آسيا، وقع طرد جبليي شبه الجزيرة الهند الصّينيّة من قبل الشّعوب المهيمنة. وفي أفريقيا السّوداء، يقوم سكّان البنتوس بهجمة شبه اجتثاثيّة على البوشيمان، وتتعرّض الآن مساحات كبيرة من الأدغال الأمازونيّة إلى التّدمير، وهو ما يحكم على الشّعوب المستقلّة الأخيرة بالنّزوح نحو الضّواحي البائسة للعواصم أو بالاندثار. إنّ الهمجيّة مستمرّة، ومع ذلك يجب التّأكيد على مقاومة هذه الهمجيّة، مثلما هو الحال في البرازيل حيث تمّ إحداث جمعيات للنّضال في سبيل حماية الشّعوب الأصليّة وصيانة حقوقها.

أعيد القول مرّة أخرى، إنّ همجيّة الغزو الأوروبّيّة لم تنته بعد نهاية الحرب العالميّة الثّانية. فبالنّسبة إلى فرنسا، لم تنته إلاّ مع حرب الجزائر، وستنتهي بعد ذلك بالنّسبة إلى البرتغال مع أنغولا والموزمبيق. وهكذا، كفّت الأمم الأوروبّيّة عن أن تكون أمما استعماريّة. وكذلك الأمر بالنّسبة إلى الهمجيّة التّطهيريّة، فالأمم الأوروبّيّة تتخلّى شيئا فشيئا بفضل تأسيس الفضاء الأوروبّيّ عن القوميّة القائمة على النّقاوة العرقيّة. نحن إذن في حقبة من الزّمن تشهد فيها الهمجيّة الأوروبّيّة تراجعا كبيرا، ويمكن فيها للتّرياق الثّقافيّ الأوروبّيّ الّذي لعب دورا في هذا التّراجع أن يسمح بتعريف أوروبّا.

الفصل الثّاني

التّرياق الثّقافيّ الأوروبّيّ

قد يبدو لكم أنّي أعطي لعرضي هذا شكل اللّوحة التّاريخيّة الشّاملة والسّريعة جدّا. بيد أنّ الخيط التّاريخيّ النّاظم الّذي أقتفيه ليس بالنّسبة إليّ وسيلة لاستعراض تأريخيّ لظاهرة الهمجيّة، بل هو وسيلة لفهمها.

في القرن السّادس عشر، حدث تحوّل في أوروبّا الغربيّة. إذ شاهدنا في نفس الوقت ازدهار الاقتصاد، وازدهار المدن، وأيضا تشكّل الأمم الحديثة. وقامت النّهضة بإحياء الإرثين اللاّتينيّ واليونانيّ، وخصوصا هذا الأخير الّذي كان سجين الخطاب اللاّهوتيّ. بتعبير آخر، قامت عودة اليونان هذه بتكسير القوقعة اللاّهوتيّة وأدّت إلى استقلاليّة التّفكير الّتي ستسمح بانطلاق الفلسفة والعلوم الحديثة. من المؤكّد أنّه كان يوجد في صلب علم اللاّهوت ولاسيما في التّوميّة le thomisme (نسبة إلى توماس داكان [المترجم]) تفكير عقلانيّ، ولكنّه ظلّ تحت السّيطرة الدّينيّة. وهكذا، سيتطوّر العلم وهو يمشي على أربع : الخُبريّة، والمعقوليّة، والتّحقّق، والتّخيّل. والنّهضة أيضا هي عصر تطوّر الإنسانيات، تطوّر ثقافة قائمة على إدماج الثّقافة الإغريقيّة والثّقافة اللاّتينيّة. ففي ذلك العصر، كان العديد من المفكّرين يتميّزون بفكرهم الموسوعيّ، ويعرفون العربيّة والعبريّة والإغريقيّة واللاّتينيّة.

لقد اختمرت النّزعة الإنسانيّة l'humanisme الأوروبّيّة أثناء النّهضة. وحين نتساءل عن جوهر هذه النّزعة الإنسانيّة، يمكننا أن نستخلص نوعين من الأجوبة المتضاربة قطعا. الجواب الأوّل هو على سبيل المثال جواب الفيلسوف البولوني لازّاك كولاكوفسكي Leszek Kolakowsky. فبالنّسبة إليه، نهلت النّزعة الإنسانيّة الأوروبّيّة من اليهوديّة ـ المسيحيّة : ففي التّوراة، خلق اللّه الإنسان وفق مثال له، وفي الإنجيل، حلّ اللّه في كائن بشريّ. وهذا الرّأي اعترض عليه الفيلسوف التشيكيّ يان باتوشكا Jan Patocka بقوله إنّ منبع النّزعة الإنسانيّة الأوروبّيّة يونانيّ، ذلك أنّ الفكر اليونانيّ هو الّذي أثبت فيه الفكر البشريّ ومعقوليتُه rationalité استقلاليتهما. كما أنّ الإلهة أثينا في المدينة

الدّيمقراطيّة الأثينيّة لم تكن تضطلع بالحكم بل بالحماية. فالدّيمقراطيّة إذن تعني ما يلي : إنّ المواطنين المسؤولين يحكمون المدينة بأنفسهم.

بوسعنا في الحقيقة أن نعتبر أنّ المصدرين لا يقصي الواحد منهما الآخر، وأنّهما قد اجتمعا لخلق النّزعة الإنسانيّة الأوروبّيّة. من المؤكّد أنّ المصدر الأوّل حيث الإنسان في صورة الرّبّ وحيث يصير الرّبّ بشريّا، وإن كان يفضي إلى احترام الحياة البشريّة، إلاّ أنّه يفضي أيضا إلى إناسة مركزيّة anthropocentrisme ساذجة، ويكون مصدرا لداء جنون العظمة mégalomanie. بتخلّصه من الرّبّ، سيتّخذ الإنسان صفة الذّات ومركز الكون. ولكنّنا، ونحن نروي النّزعة الإنسانيّة الأوروبّيّة، لا بدّ لنا من أن نذكر ما لم يقم به أيّ من هذين الفيلسوفين وهي رسالة المسيح نفسها. رسالة تتحدّث عن الرّحمة وعن العفو. إنّ روح الأخوّة هي ما سينبثق عن تلك الكلمة ويلتحق بالمعقوليّة الإغريقيّة. وهكذا، سيتّحد شيء ما وجدانيّ بالخاصّيّة الباردة للمعقوليّة ليشكّلا معا النّزعة الإنسانيّة الأوروبّيّة.

لهذه النّزعة الإنسانيّة وجهان، الواحد منهما هيمنيّ، والثّاني أخويّ، وهذا ما سيثير لبسا كبيرا حول العبارة، ولاسيما في القرن العشرين. فالوجه الأوّل للنّزعة الإنسانيّة، ذاك الّذي يتبدّى وهميّا حتّى لا نقول هذيانيّا، يضع الإنسان مكان الرّبّ، ذاتا وحيدة فعليّا في الكون، ويكلّفه بمسؤوليّة غزو العالم. إنّها المهمّة الّتي كلّف بها ديكارت العلم : أن يجعل من الإنسان سيّدا على الطّبيعة ومالكا لها. هذه الرّسالة الدّيكارتيّة سيستعيدها بوفّون Buffon ثمّ كارل ماركس، وفي النّهاية، وليس إلاّ انطلاقا من 1970، أي حديثا جدّا، ستتفتّت هذه الرّسالة ذات القوّة البرومثيوسيّة الخارقة. ومن هنا فصاعدا، سندرك أنّ السّيطرة على الطّبيعة، وهي في الحقيقة سيطرة غير خاضعة للرّقابة، تؤدّي إلى تخريب المحيط الحيويّ، وبالتّالي إلى تدهور الحياة والمجتمع الإنسانيين : إنّ لهذا النّوع من السّيطرة طابعا انتحاريّا.

من جهة أخرى، سنكون من هنا فصاعدا على دراية ووعي بضآلة كوكب الأرض في النّظام الشّمسيّ، وبضآلة الكوكب الشّمسيّ في درب التّبّانة، وبضآلة مجرّتنا في الكون. حينئذ، ينبغي علينا أن نلتفت نحو الوجه الثّاني للإنسيّة، الوجه الّذي يفرض احترام جميع البشر، مهما كان جنسهم أو عرقهم أو ثقافتهم أو أمّتهم.

عمليّا، لئن كانت هذه النّزعة الإنسانيّة من النّاحية المبدئيّة سارية المفعول على جميع النّاس، إلاّ أنّ الغرب الأوروبّيّ قد قصرها على رعاياه فقط، معتبرا أنّ الشّعوب الأخرى كانت متخلّفة وقديمة وبدائيّة. فعلى سبيل المثال، كان لوسيان ليفي- بريل Lucien Lévy- Brühl يعتبر البدائيين بمثابة كائنات طفوليّة وخرافيّة، سجينة التّفكير السّحريّ. ولكنّه نسي أنّ في كلّ شكل من أشكال الحضارة هناك معقوليّة ما، على الأقلّ في صناعة الأدوات، وفي استخدام الأسلحة، وفي ممارسة القنص. يوجد إذن في أيّ مجتمع تفكير عقلانيّ وتقنيّ وعمليّ، وإلى جانبه تفكير سحريّ وأسطوريّ ورمزيّ. وهذا ينطبق أيضا على مجتمعنا. ويبدو لي أنّ من المهمّ جدّا أن نشير إلى ذلك.

ارتبطت النّزعة الإنسانيّة في وجهها الثّاني بتطوّر المعقوليّة النّقديّة، وحتّى النّقديّة الذّاتيّة. نرى ذلك مثلا في «تقريظ الجنون» L'Eloge de la folie لـ إيرازم ÉRASME ، معبّرا عنه طبعا بأشكال حذرة. ففي بقيّة كتابه، ظهر إيرازم، رغم فكره المتسامح جدّا، متحفّظا كثيرا إزاء السّلطة الكاثوليكيّة وأيضا تجاه اللّوثريّة.

إنّ ما يستحقّ الذّكر عن بروز المعقوليّة النّقديّة الذّاتيّة، هي أهمّيّة المَرّانيّة le marranisme غير المعترف بها. في الحقيقة، كان المرّانيون (les marranes) من أصل يهوديّ أساسا، بما أنّ الكثير من المسلمين قد التحقوا بالمغرب بعد سقوط غرناطة. ومن اليهود الّذين تحوّلوا إلى المسيحيّة، بقي البعض منهم في أسبانيا واستقرّ البعض الآخر في هولندا. وفي هذا الصّدد، هناك نوعان من المَرّانيين، الأوائل نسوا أصولهم وأصبحوا مسيحيين. والآخرون احتفظوا سرّا بعقيدتهم وهويّتهم اليهوديّتين. كان هذا حال الطّبيب فيرنندو كاردوزو Fernando Cardoso. فهذا الرّجل المنتمي إلى القرن السّابع عشر، شاعر البلاط، صديق كبار كتّاب المسرح، مؤلّف القصائد، خصوصا عن ثورة بركان فايسيف Vésuve، كان على ما يبدو مندمجا تماما. آنذاك، سافر إلى البندقيّة، والتقى بسلطات المجبر، وطلب منها الاعتراف به يهوديّا. قبلت السّلطات طلبه شرط أن يصبح طبيب الفقراء،

فوافقها على ذلك. وألّف في البندقيّة كتابا سيتمّ طبعه في هولندا بعنوان «في امتياز اليهود»، ليبيّن فيه أنّ شريعة موسى أرقى من شريعة المسيح.

غير أنّ هناك وجها ثالثا للمرّانيّة، ظهر انطلاقا من هويّة مزدوجة، من الشّعور بالانتماء إلى نمطين من الوجود مختلفين، إلى مجتمعين متعارضين. إنّ صدام دينين متناقضين هو شبيه بالتقاء جسيمين متصادمين، فكلّ منهما يدمّر الآخر ليشكّلا معا مجموعة جديدة. هذه الحالات نادرة، ولكنّها لافتة للنّظر. فعلى سبيل المثال، قام برتولوماي دي لاس كازاس Bartolomé de Las Casas، وهو من أصول متنصّرة، بإقناع التّراتبيّة الكاثوليكيّة بأنّ هنود أمريكا هم مثل الآخرين بشر ولهم روح. وكانت الكنيسة ترفض ذلك : فكيف نعتبرهم مثل البشر بما أنّ المسيح لم ينتقل أبدا إلى أمريكا الجنوبيّة! كان الاضطهاد الّذي تعرّضوا إليه والّذي كان برتولوماي شاهدا عليه قد أثار رأفته، فعاد إلى المصدر البوليني (نسبة إلى القدّيس بول [المترجم]) القائل : «ليس هناك رجال ولا نساء، ولا يهود ولا يونانيون، ولا أناس أحرار ولا عبيد، جميعكم واحد في يسوع المسيح» (رسالة هدي إلى سكّان ڤالاتس : Épître aux Galates). مع الأسف، ولأسباب متعلّقة بالتّقيّة، غضّ برتولوماي دي لاس كازاس الطّرف عن مصير الأفارقة ضحايا تجارة العبيد، الّتي انطلقت عمليّا منذ 1502 على جزيرة إسبانيولا.

المثال الآخر الّذي يجدر بنا ذكره هو مثال مونتانييي Montaigne. سنستغرب القول بأنّه مَرّانيّ، بما أنّ الجميع يعرفونه ڤاسكونيّا، ولكنّ هذا لا يمنع ذاك. فنحن نعلم من مصادر موثوق بها أنّ عائلة أمّه، لاي لوب les Loupe، كانت تنحدر من لاي لوبيز les Lopes، الّتي وقع العثور على آثارها في أسبانيا. فسيكون من الغريب إذن أنّ هذا التّزاوج، في عصر كانت فيه الزّيجات منظّمة، لم يكن بين سليلين مرّانيين، هذا مع أنّنا لا نعرف شيئا عن عائلة الأب. من المهمّ أن نذكر أنّ المراجع الرّئيسيّة في «مقالات : Essais» هي إغريقيّة ولاتينيّة، ولا وجود تقريبا للإحالات على الأناجيل، ولا على أيّ نصّ دينيّ. وهناك رسالة غريبة جدّا كتبها لأبيه ليرثيه في موت صديقه لابواسي La Boétie أثناء قدّاس أقيم له في إطار الطّقس الكاثوليكيّ. إذ يقول لابواسي في نهاية الرّسالة بصوت قويّ : «أموت وأنا على العقيدة الّتي زرعها موسى في مصر، ومنها انتقلت إلى يهوذا وحملها

آباؤنا إلينا.» لقد سألت المختصّين في لابواسي عن معنى هذا، فلم يكونوا قادرين حتّى على الإجابة على سؤالي.

المهمّ هو أنّ هذا المرّانيّ الّذي هو مونتانيي، كان شهابا حقيقيّا في عصر من الحروب الدّينيّة. كان كذلك بسبب ريبيّته ورفضه اعتبار الهنود الأمريكيين جنسا أدنى. كتب يقول : «أولئك الّذين نسمّيهم برابرة هم بشر من حضارة أخرى غير حضارتنا.» ويضيف : «أرى[...] أنّه لا وجود لشيء همجيّ ووحشيّ في هذه الأمّة... ما عدا أنّ كلّ شخص يعتبر ما ليس من عاداته همجيّا.» إنّ من وجوه الهمجيّة الغربيّة اعتبار الآخر المختلف، همجيّا، عوضا عن الاحتفاء بهذا الاختلاف وعن العثور فيه على فرصة لإثراء المعرفة والعلاقة بين البشر. يمثّل مونتانيي هذا الفكر ذا الحرّيّة غير المسبوقة الّذي وُفّق في التّحرّر من الأحكام الهمجيّة المسبقة في عصره. وأعتقد أنّ مصدر حرّيته هو في هذه الحرّيّة الباطنيّة لفكر يتحرّك بعيدا عن اليهوديّة وبمنأى عن المسيحيّة. لم يكن خاضعا للتّعارض بين يهوديّ ومسيحيّ، بين مسلم ويهوديّ، بين مؤمن وغير مؤمن. بطبيعة الحال، قد يكون ذلك لأنّ الأصول المَرّانيّة بعيدة جدّا. ولكنّ الذّهنيّة المَرّانيّة هي بالأحرى الّتي تفتّقت بداخله. أمّا على الصّعيد السّياسيّ، فقد ظلّ حذرا للغاية، ولكنّه كان محافظا دائما على إيطيقا التّسامح لديه. فكان يدعم الملك في جميع جهود الاعتدال الّتي كان يبذلها من أجل تجنّب حرب دينيّة.

أودّ أيضا أن أتناول حالة سبينوزا **Spinoza**. فهو في آثاره، يقصي الرّبّ الخارجيّ، خالق العالم، وذلك في وقت كان ما يزال فيه موجودا بقوّة عند ديكارت أو عند نيوتن ولم تفرض نفسها بعد فكرة العالم المخلوق ذاتيّا، «أو علّة ذاته» بتعبير سبينوزا، إلاّ مع هيجل. إنّ القوّة الخلاّقة موجودة في الطّبيعة، مثلما تبيّنه الصّياغة المعروفة **natura Deus sive** ، الّتي يمكن أن نفهمها كما يلي : اللّه، أو إن شئتم الطّبيعة، سيّان عندي. العقل عند سبينوزا سيّد، ولكنّه ليس عقلا باردا جامدا، إنّه عقل رؤوف في جوهره، وإن صحّ التّعبير عقل «محبّ». وهو يرفض فكرة الشّعب المختار، غير المواكبة للعصر حسب رأيه، وهو بهذا يُعلمِن **laïcise** الهويّة اليهوديّة، وفي نفس الوقت يستعيد ثانية فكرة الكونيّة بعيدا عن المسيحيّة. معه، نلتقي مرّة أخرى

بنفس الفكر المستقلّ الّذي كان عند مونتانيي. صحيح أنّه كان يعيش في أمستردام المتسامحة آنذاك، ولكنّه لم يسلم رغم ذلك من هجمات التّعصّب. وكان عليه بعد أن أطرد من الكنيس ونجا بأعجوبة من محاولة اغتيال أن يعيش حياة شبه بائسة.

لا يمكننا أن ننفي أنّ المفتّشين الأسبان كانوا على حقّ حين اعتبروا أنّ المَرّانيّة مصدر للرّيبيّة والعقلانيّة. فالأمثلة على ذلك كثيرة في القرن السّابع عشر. من ذلك أنّ دون كيشوت لسرفانتس Cervantès تتميّز بنوعين من السّخرية : نقد المخيال بالواقع نقدا مجسّدا في العين النّاقدة الّتي يلقيها صانشو بانسا Sancho Pança على دون كيخوته من جهة، وأيضا نقد الواقع النّثريّ بالمخيال الّذي هو منبع الشّعر، نقدا يجسّده الفارس الهائم من جهة ثانية. وهكذا تعلن دون كيشوت عن زوال سحر العالم الحديث، الزّوال الّذي سيصفه ماكس فيبر Max Weber بعد ذلك بقرنين من الزّمن. فرغم أنّ صانشو ودون كيشوت لا ينفصلان، إلاّ أنّ التّوفيق بين عالميهما مستحيل، ولهذا السّبب مازال هذا العمل فاتنا، وينبثق هو بدوره كالشّهاب في كون الأدب والخيال.

هكذا إذن، تطوّرت النّزعة الإنسانيّة في التقاء الرّسالة الإغريقيّة الّتي تمّ إحياؤها في إيطاليا النّهضة ونمت من ثمّة في البلدان الغربيّة الأخرى ماعدا أسبانيا. ولكن حتّى انطلاقا من أسبانيا هذه الّتي حُبست فيها الرّسالة، انبجست النّزعة الإنسانيّة سرّا انطلاقا ممّن يمكن لنا أن نسمّيهم ما بعد مرّانيين الّذين غذّوا وأكّدوا نزعة إنسانيّة بذهنيّة لائكيّة وكونيّة.

سيكون من المفيد أيضا أن نستحضر ظاهرة جرت في الإمبراطوريّة العثمانيّة وتعود إلى ما بعد المرّانيّة، إنّها الحركة اليسوعيّة لسابّاتي تسيفي Sabbatai Tsevi . فبعد أن ادّعى أنّه يسوع منتظر جديد، تحوّل في الأخير إلى الإسلام. حافظ أتباعه على عقيدة هذا اليسوعيّ اليهوديّ سرّا مع اعتناقهم للإسلام جهرا. وكان هؤلاء المرتدّون يلقّبون بـ "دونم" donm (أي الّذين ارتدّوا عن ديانتهم). وكان لهم تأثير كبير في

إسطنبول. إذ بنوا في القرن التّاسع عشر مدارس علمانيّة تكوّن فيها ضبّاط تركيا الفتاة ومصطفى كمال الّذي سيرسي بنفسه اللاّئكيّة في العشرينات. هذه الواقعة تؤكّد أيضا أنّ خفايا التّاريخ عجيبة تماما، كما أنّها بصفة خاصّة تعيد إلى الصّدارة من جديد الفضيلة التّحريريّة للفكر المرّانيّ. فالسّبّاتيون، بانصرافهم عن الشّريعة اليهوديّة وتبنّيهم لإسلام ظاهريّ، تحرّروا من هذا وذاك معا. لهذا يمكننا أن نسجّلهم ضمن حركة النّزعة الإنسانيّة الأوروبّيّة.

هذا التّقليد في النّزعة الإنسانيّة الأوروبّيّة، أي جانبها النّقديّ الذّاتيّ، يعبّر عن نفسه جيّدا في "الرّسائل الفارسيّة" Les lettres persanes لمونتسكيو، وسيستمرّ حتّى كلود ليفي ستراوس. فمونتسكيو يتخيّل فُرْسا يأتون إلى الغرب ويعتبرون الفرنسيين بمثابة الكائنات العجيبة، وهذا موقف نموذجيّ للمعقوليّة النّقديّة الذّاتيّة : أي أن نعتبر أنفسنا موضوعا للمعرفة وللنّقد. ويقدّم فولتير مثالا آخر على ذلك في "خُطب إلى سكّان بلاد الغال" Discours aux welches. مع الأسف، تظلّ المعقوليّة النّقديّة الذّاتيّة جانبا ضئيلا في التّقليد الغربيّ. ففي القرن الثّامن عشر، عصر الأنوار، كانت المعقوليّة بالخصوص نقديّة وكانت موجّهة أساسا إلى الأديان، الّتي نظر إليها باعتبارها نسيجا للخرافات والأوهام. وهو نقد اختزاليّ، لأنّه لم ينتبه إلى ما سيتولّى ماركس إبرازه لاحقا، وهو أنّ الدّين زفرة المظلوم، والواسطة الّتي بها تفصح عن نفسها الطّموحات الإنسانيّة الأعمق غورا.

سيجد فكر الأنوار الإنسانيّ صياغته في "إعلان حقوق الإنسان والمواطن"، وهي الرّسالة الّتي حملتها الأرستقراطيّة المستنيرة أكثر بكثير من البرجوازيّة، كما بيّن ذلك فرنسوا فيراي François Furet. فليلة 4 أوت، تخلّى الأرستقراطيون بأنفسهم عن امتيازاتهم.

ومع ذلك، فللعقل في تلك الفترة الّتي سجّلت انتصاره وجوه مختلفة. فالعقل العلميّ يبني نظريّات. ولكنّ هذه النّظريات القائمة في الظّاهر على معطيات مترابطة منطقيّا، من الممكن أن تشينها "العقلنة"، من خلال رؤية جدّ منطقيّة لا تقرّ إلاّ بما يؤيّدها. لابْلاس Laplace مثلا، يحْقن العلم ذاته بالعقلنة. إنّه يقترح رؤية حتميّة تماما للكون، في إطار مُعلمَن كلّيّا بطبيعة

الحال : فهو يفترض أنّ شيطانا يختصّ بقدرات فائقة سيكون قادرا لا على معرفة جميع أحداث الماضي فحسب، بل وأيضا على توقّع جميع أحداث المستقبل. وعندما سأله نابليون : "والرّبّ، ماذا ستفعل به؟"، أجابه لابلاس : "لست في حاجة إلى هذه الفرضيّة". كان تصوّر لابلاس يقوم على عقلنة قصوى لمعقوليّة نيوتن. واليوم أدركنا أنّه لا يمكن اختزال كلّ شيء في الكون في الحتميّة. هناك إذن معقوليّة نقديّة تتحاشى فخاخ العقلنة، معقوليّة نقديّة ذاتيّة تقرن بين العقل والمعرفة وامتحان الذّات. إنّ علل العقل لا تعود إلى المعقوليّة في حدّ ذاتها، وإنّما إلى انحرافها إلى عقلنة وإلى ما يشبه القداسة.

إنّ أَلْيتة العقل instrumentalisation (أي اختزاله في آلة [المترجم])، الموضوعة مثلا لخدمة أهداف غير عقلانيّة بالمرّة كالحرب، تندرج ضمن نمط آخر من العقلنة. في الحقيقة، إنّ ما ينبغي رؤيته وراء جميع أنواع العقلنة، زيادة على غياب الفكر النّقديّ والنّقديّ الذّاتيّ، هو إهمال ما يسمّيه روسّو الحساسيّة وهو إهمال لطبيعتنا الخاصّة. ولئن كانت الطّبيعة حاضرة عند روسّو، إلاّ أنّ عصر الأنوار رغم كلّ شيء كان يتجاهلها. كلّ هذا سيتغيّر مع الرّومنطيقيّة.

الرّومنطيقيّة الأولى هي إعادة صياغة الكون شعرا، هي استجابة لحنين الجماعة إلى الماضي، هي أمثُلة (بفتح الثّاء) idéalisation للعصر الوسيط. غير أنّ هذا الحنين إلى الماضي سيتحوّل بعد بضع سنوات إلى توق إلى الغد المنقذ، وهو ما عبّر عنه كلّ من لامارتين Lamartine وهيغو، الّذين حقّقا الانصهار بين الرّوح الرّومنطيقيّة وروح الأنوار. كان لامارتين بطلا من أبطال ثورة 1848، تلك الّتي أضافت كلمة "أخوّة" إلى الكلمتين الأوليين في رمز الثّورة الفرنسيّة الشّهير. أمّا هيغو، بفكره الرّائي، فقد تخيّل قبلا وجود الولايات المتّحدة الأوروبّيّة الّتي تمهّد للولايات المتّحدة العالميّة. تلك الحقبة من الزّمن أعادت الحياة لحقوق الإنسان، وحقوق الشّعوب، وحقوق البشريّة بتأثير من الفكر الاشتراكيّ خصوصا.

خلال القرن التّاسع عشر، حدث نوع من الغليان مع فورييه Fourier، ولورو Leroux وبرودون Proudhon هؤلاء الهيجليين الشّباب، وشتيرنر Stirner منظّر الفوضويّة، وأخيرا ماركس. قام هذا الأخير بتوليفة فلسفيّة وفكريّة متميّزة في سبيل السّعادة البشريّة الّتي تحملها الاشتراكيّة بداخلها، الاشتراكيّة الّتي هي توق كونيّ زيادة على الحرّيّة والمساواة. غير أنّه من الممكن وصف فكره بأنّه ما بعد مَرّاني. في الواقع، إنّ يسوعيّةً يهو- مسيحيّة معلمَنة موجودة في قلب تصوّره. فالبروليتاريا الصّناعيّة تصبح يسوعا منتظرا، والثّورة رؤيا قيامة، والمجتمع الخالي من الطّبقات الخلاص الأرضيّ. معظم الماركسيين اعتقدوا أنّهم كانوا يمارسون المعقوليّة الأكثر كليانيّة دون أن يدركوا أنّهم كانوا يمارسون ديانة خلاص. إنّ نوجّه النّزعة الإنسانيّة الأوروبّيّة إلى الكونيّة قد عاد ثانية في أحشاء هذا الأمل الاشتراكيّ، بفضل تأسيس الأمميّات، على الرّغم من أنّ تنظيمها كان مقتصرا بعد على البلدان الأوروبّيّة والولايات المتّحدة الأمريكيّة. ومع هذا كلّه، رسخت في القسم الأكبر من العالم الأوروبّيّ فكرة أنّ المعقوليّة هي امتياز للغربيين وحكر عليهم.

بهذا، نصل إلى فكرتين متشعّبتين. أولاهما أنّ أوروبّا الغربيّة، وهي موطن الهيمنة الأكثر خطورة ولم يوجد لها مثيل أبدا في العالم من قبل، هي أيضا الموطن الوحيد للأفكار التّحريريّة الّتي ستقوّض تلك الهيمنة. هذه الأفكار التّحريريّة يحملها هؤلاء الّذين يستلهمون من النّزعة الإنسانيّة الأوروبّيّة الحديثة، من مفكّرين ومناضلين وبصورة أكبر من رجال ونساء ذوي إرادات طيّبة منحدرين من مختلف طبقات المجتمع. بادرت إلى ذلك عقول موسومة بأفكار الثّورة الفرنسيّة، مثل فيكتور شوالشار Victor Schœlcher الّذي كما أسلفنا أمر سنة 1848 بإلغاء العبوديّة في المستعمرات الفرنسيّة. إنّ هذه الأفكار سيتمّ نشرها في المستعمرات عن طريق تعليم الثّقافة الفرنسيّة، كما سيتمسّك بها النّاطقون بلسان البلدان المستعمَرة، وهم الّذين سيحيلون الغرب إلى مبادئه هو : حرّيّة، حقّ الشّعوب، الخ. كانت هذه الأفكار عاملا من عوامل إزالة الاستعمار. في أوروبّا إذن، موطن الهيمنة والغزو، تشكّل التّرياق المتمثّل في الأفكار التّحريريّة.

الفكرة الجوهريّة الثّانية تتعلّق بهذا المسار الّذي أسمّيه "الحقبة الكونيّة". فمع غزو الأمريكتين، ومع الملاحة حول العالم الّتي قام بها الملاّحون البرتغاليون والأسبان، دخل كوكبنا في نظام من الاتّصال المتبادل الّذي سيتطوّر باستمرار. ولئن كان هذا المسار غير منفصل عن الاسترقاق والاستعباد، فإنّ مبادئ إزالة الاستعمار والاسترقاق كانت موجودة منذ البداية. فإلى جانب عولمة تجارة المتاجرين والتّجّار، نمت عولمة لأفكار التّحرّر أفضت إلى إلغاء العبوديّة. من المؤكّد أنّ هذه العولمة جاءت متأخّرة كثيرا عن الأولى وأنّها جرت بصعوبة. ففي الولايات المتّحدة مثلا، أثارت الأفكار التّحريريّة أيضا حرب الانفصال. وبالمثل، أفضت الحركة العالميّة للتّحرّر في آخر الأمر، بعد الحرب العالميّة الثّانية، إلى إيجاد حركة عالميّة لتحرّر المستعمَرين. فتمّ رحيل المستعمِرين بطريقة سلميّة أحيانا كما هو الحال في تونس والمغرب، وبطريقة تراجيديّة أحيانا أخرى كما حدث في الجزائر. هذا المسار بلغ ذروته مع وصول مانديلاّ، وريث الفكر الماركسيّ، إلى دفّة الحكم. فقد أراد أن يضع حدّا للتّمييز بين السّود والبيض، أراد أن يبني أمّة للجميع. وهكذا توخّى منطقا مختلفا تماما عن المنطق الّذي جسّده المدّ القوميّ المجرّد من كلّ إنسانيّة في أوروبّا الشّرقيّة، هذا المدّ الّذي أدّى إلى حرب يوغسلافيا وإلى تقويض ما كان موحّدا.

كان في وسعنا في كثير من الأحيان أن نعاين مسارا لإزالة الاستعمار على مرحلتين. فهناك أوّلا إزاحة أولى للاستعمار ليست من صنع المستعمَرين بل من صنع المعمّرين المزروعين في تلك البلدان، وهم نخبة من أصول أوروبّيّة، أوصلوها إلى الاستقلال، مثلما وقع في الأرجنتين أو في البرازيل. ولنلاحظ هنا أنّ البرازيل، رغم حصولها على الاستقلال، ظلّت تعرف العبوديّة حتّى نهاية القرن التّاسع عشر. ولنلاحظ أيضا أنّ مفهوم الأمّة في أمريكا اللاّتينيّة نما بشكل أوسع ممّا كان في الأمم الأوروبّيّة الكبرى، وأنّه تغذّى من اختلاط الأجناس، لأنّ هذه الأخيرة متعدّدة في البرازيل والأيكواتور والمكسيك وكولومبيا. وهي بطبيعة الحال أقلّ في البلدان الأنديّة حيث الطّبقات

المنغلقة من أصل أبيض تبقي على أغلبيّة كبيرة من السّكّان الأصليين بعيدا عن المناطق الواقعة تحت نفوذ السّلطة. وهذا ما يطرح مشكلة تحتدّ باستمرار.

لفهم العولمة إذن، لا بدّ من رؤية السّيرورة الجدليّة الّتي أفضت إليها. فقد جرت عولمة أولى تحت سيطرة قوّة عظمى، هي أسبانيا في عصرها الذّهبيّ، والولايات المتّحدة اليوم. وهذه العولمة أنتجت عولمة أخرى قد تبدو الآن في مرتبة ثانية، وتقلّ قوّة عن الأولى، إلاّ أنّها تحمل آمال التّحرّر والإنسانيّة.

ما الّذي حدث فعلا بعد سنة 1989؟ لقد أدّت عولمة السّوق إلى انهيار الإتّحاد السّوفييتيّ واقتصاده البيروقراطيّ، كما أدّت إلى تخلّي الصّين وفيتنام وجميع البلدان الشّيوعيّة عن هذا النّمط من الاقتصاد، حتّى وإن استمرّت ديكتاتوريّة الحزب الشّيوعيّ. وكان لزوال الثّقة في أفكار الاشتراكيّة الحقّ وفي فضائل الاقتصاد الاشتراكيّ أن خدم لبضع سنوات ما سُمّي باللّيبراليّة الجديدة. وانتصرت فكرة أنّ التّعديلات الاقتصاديّة الذّاتيّة والتّلقائيّة تكفي وحدها لحلّ جميع المشكلات، بما فيها التّربويّة، بينما كانت اللّيبراليّة الكلاسيكيّة في السّابق تتحرّك في إطار التّنظيمات الّتي تقوم بها الدّول. ونحن اليوم مازلنا ضمن هذه الفترة، المتميّزة بغياب أيّ تعديل حقيقيّ على النّطاق الكونيّ. بيد أنّ عولمة السّوق هذه تثير عولمة موازية يسمح بها التّقدّم الهائل لتقنيات التّواصل. فنحن من الآن فصاعدا نعيش في عصر الحضور الكونيّ l'ubiquité بفضل الفاكس والبريد الإلكترونيّ والهاتف المحمول. إنّ هذه الظّروف التّقنيّة والاقتصاديّة الجديدة تفتح حقبة جديدة، حقبة تستطيع الأفكار فيها أن تتجوّل بسرعة الضّوء. ومن قبل، سمح سقوط الإتّحاد السّوفييتيّ بانتشار الأفكار الدّيمقراطيّة لا فقط في البلدان التّابعة للإتّحاد السّوفييتيّ، أي الدّيمقراطيات الشّعبيّة السّابقة، بل وأيضا في أمريكا اللاّتينيّة وأفريقيا. إنّها حقبة سقوط معظم ديكتاتوريات أمريكا اللاّتينيّة. إنّه ثأر 1789 من 1917. فطوال عشرات السّنين، كان يبدو أنّ 1789 ثورة تمهيديّة صغيرة، ذات طابع ثانويّ، وأنّ الثّورة الحقيقيّة لا يمكنها أن تتفتّح إلاّ مع ثورة 1917 واستيلاء الحزب البلشفيّ على السّلطة. في سوق القيم الرّاهنة، انهارت 1917 وصعدت 1789.

نحن الآن في هذه الوضعيّة الّتي تتطوّر فيها العولمة الثّانية، بإيقاع من المؤكّد أنّه مختلف عن إيقاع الأولى، غير أنّه يتقدّم رغم كلّ شيء. ولقد تبيّن أنّ تكهّن ماركس مدهش حقّا، وذلك حين نلاحظ مشكلة الثّقافة والأدب والفنون. كان ماركس يكره البرجوازيّة ويعجب بها في نفس الوقت. فهو من جهة يرى فيها هذه الطّبقة الّتي تستغلّ بشدّة قسما من البشريّة، ومن جهة أخرى الطّبقة الّتي تقوّض العلاقات القديمة القائمة على الاستعباد والإقطاعيّة، وذلك بخلقها لفضاء يمكن أن ينتشر فيه أدب عالميّ. واليوم، ما الأدب العالميّ؟ إنّه النّفاذ إلى آداب جميع أصقاع العالم بفضل وسائل الاتّصال والنّشر الهائلة الّتي وضعتها الرّأسماليّة، وهو أيضا ابتداع فنون من طراز مختلف. فالصّناعة الثّقافيّة، وإن كانت قائمة على السّعي وراء الرّبح، تحتاج أيضا إلى الطّرافة والابتكار. الأفلام الهوليوديّة مثلا، المنجزة بوسائل شبه صناعيّة، أنتجت أعمالا رائعة كأعمال جون فورد، في حين كانت السّينما السّوفييتيّة بالمقارنة معها أقلّ ابتكارا. ولكن مع الأسف، سحقت مقتضيات الإنتاج في كثير من الأحيان متطلّبات الإبداع. ويُعتبر أورسون والز Orson Wells مثالا محزنا على ذلك. في كلّ حال، لا يمكننا أن نختزل العولمة الاقتصاديّة والسّلعيّة في مجانسة رديئة، فهي بنفسها تنشئ عولمة إنسانيّة وتتغذّى منها، دون أن تذوب فيها بطبيعة الحال.

هذه الجدليّة الخاصّة بالعولمة تجد لها صياغة مفهوميّة تقريبا في مفهوم العولمة البديلة، الّتي هي بالطّبع بروز لعولمة لا تركّز على قيم السّوق، وليس في مفهوم العولمة المضادّة الّتي تحدّث عنها الإعلام طويلا. فمنذ سياتّل سنة 1999، رأينا جوزي بوفاي يعبّر عن فكرة عولمة أخرى. ففي صياغة : "العالم ليس سلعة" يتعلّق الأمر فعلا بخلق عالم آخر وليس فقط بالمحافظة على خصوصيات مختلف البلدان. حتّى وإن كانت العولمة البديلة مازالت تبحث عن نفسها بعد، لأنّها لم تتوصّل إلى صياغة رؤيتها الخصوصيّة، ولأنّ الصّراعات والتّيّارات المختلفة تمزّقها أحيانا، فهي بالتّأكيد حيّة. فقد نشأت مواطَنة العالم (بفتح الطّاء) بمناسبة حرب بيافرا Biafra، هذه المقاطعة النّيجيريّة الّتي كانت تحارب من أجل استقلالها. وتأسّست منظّمة

أطبّاء بلا حدود، وتتمثّل مهمّتها في معالجة البشر مهما كان عرقهم أو دينهم. كانت تلك خطوة مهمّة. ومنذئذ، تكاثرت مثل هذه المنظّمات الإنسانيّة الشّاهدة على وعي كونيّ جديد، في نفس الوقت الّذي سقط فيه الفكر الأمميّ، فكر الأمميّة الشّيوعيّة والدّوليّة الاشتراكيّة الدّيمقراطيّة.

هذه الأمميات تركت نفسها فريسة للأمم. ففي فرنسا، كانت الأمميّة الثّانية، القويّة سنة 1914 مع حزب فرنسيّ يقوده جوراس Jaurès، تريد السّلام مثلما يريده الحزب الألمانيّ. ولكن، ما أن انطلقت الأعمال الحربيّة حتّى اصطفّ معظم الاشتراكيين الفرنسيين مع الحلف المقدّس ضدّ ألمانيا، ومعظم الاشتراكيين الألمان مع الحلف المقدّس ضدّ فرنسا. وحدها بعض العقول النّادرة، مثل رومان رولان وبعض النّقابيين، نجت من هذا التّنويم المغناطيسي القومجيّ. وهكذا التهمت حرب 1914 الأمميّة الثّانية. أمّا الثّالثة، أي الأمميّة الشّيوعيّة، فكانت في خدمة الدّولة السّوفييتيّة، التّي كانت بدورها في خدمة قوّتها الذّاتيّة أكثر فأكثر. لقد تمّ تحريف مُثل الاشتراكيّة الأمميّة لمصلحة وطنيّة كانت فوق ذلك حيويّة للمحافظة على الإتّحاد السّوفييتيّ. ولئن سمّى ستالين الحرب العالميّة الثّانية بـ"الحرب الوطنيّة الكبرى"، فإنّ الأمميّة الثّالثة قد التهمتها قوميّة الإمبراطوريّة السّوفييتيّة. بشكل ما، كلّ تلك الأمميات أهملت حقيقة الأوطان والأمم. واعتقدت أنّ الأمم لم تكن إلاّ أداة في يدي الطّبقة المهيمنة. فأخطأت في تقويم عمق الأمّة. حدث ذلك رغم أنّ أوتّو باور Otto Bauer حاول منذ القرن التّاسع عشر أن يبني نظريّة للأمّة تقوم على فكرة وحدة المصير، وكان ستالين نفسه، خلال شبابه، قد كلّفه لينين بتأليف كتاب حول الماركسيّة والمسألة القوميّة حاول فيه أن يقدّم بعض مقوّمات الأمّة.

ولكنّ الماركسيّة كانت عمياء، والثّوريون أنفسهم الّذين اعتقدوا أنّهم قد قاموا بكنس كلّ شيء في الإتّحاد السّوفييتيّ قد هيّئوا من حيث لا يعلمون لعودة القوميّة بقوّة، لا فقط القوميّة الرّوسيّة، بل وأيضا الأرمينيّة والأزبكيّة واللّيتوانيّة. كانوا يظنّون أنّهم قد أجهزوا نهائيّا على الدّين، فعاد بقوّة متجدّدة. وكانوا يظنّون أنّهم قد تخلّصوا إلى الأبد من الرّأسماليّة بتصفية

البرجوازيين، فجدّت رأسماليّة أدهى من رأسماليّة العهد القيصريّ. كلّ هذا يدعّم ما سمّيته "إيكولوجيا الفعل". ففي السّياسة بالخصوص، يمكن للأفعال أن تتّجه في الاتّجاه المعاكس للنّوايا، وأن يكون لها بالتّالي انعكاسات تدمّرها. وأيّ شخص يجهل إيكولوجيا الفعل محكوم عليه بالوقوع في الخطأ باستمرار.إذن، عجزت الأمميات عن أن تتحوّل إلى وعي كونيّ، ممّا ينمّ عن ضعف فكر المواطنة العالميّة.

كنت قد اقترحت سابقا فكرة "الأرض ـ الوطن"، مع العلم بأنّ لفظة "وطن" تشتمل على أسطورة غنيّة جدّا، أموميّة وأبويّة في نفس الوقت، حتّى في دلالاتها الحافّة. فمفهوم الأمّة يقول لنا إنّه لا بدّ من أن نحبّ هذه الأرض الأمّ التّي انحدرنا منها وسلطة الدّولة الأبويّة إن كانت عادلة. ولكنّ هذه الفكرة لم تتّخذ بعد حجما كونيّا. إنّ الشَّمْلَنَة (Globalisation) التّكنو- اقتصاديّة قد خلقت خلال الألفيّة الأخيرة الوسائل الّتي يمكن لها أن تسمح ببروز هذا الوعي الكونيّ، الوجدانيّ والتأمّلي معا. لقد خلقت البنيات التّحتيّة لمجتمع- عالم محتمل. فكي يكون هناك مجتمع، لا بدّ فعليّا من وجود أرض ووسائل اتّصال، لا بدّ من وجود اقتصاد. والحالة هذه، هناك فعلا أرض عالميّة مجهّزة بوسائل اتّصال لا تعدّ وباقتصاد خاصّ بها، إذن ليست عولمة الاقتصاد هي ما ينبغي أن نرثيه، بل ما يرثى له أنّها لم تخضع إلى التّنظيم مؤسّساتيّا. لا بدّ إذن من وجود سلطة منظّمة شرعيّة ذات امتداد كونيّ. ولكن، مع الأسف، أنتم على علم بما وصلت إليه الأمم المتّحدة والقانون الدّوليّ... فضلا عن ذلك، فإنّ المسار التّكنو- اقتصاديّ، الّذي يصنع البنيات التّحتيّة لمجتمع ـ عالَم، يمنع هذا المجتمع من الظّهور كما هو. هكذا تتطوّر الثّنائيّة المنطقيّة بين العولمة الاقتصاديّة والعولمة الإنسانيّة. ثنائيّة منطقيّة تعني وجود تعارض بين هاتين العولمتين وأنّه رغم ذلك تتغذّى الواحدة من الأخرى، على الأقلّ بمعنى أنّ الواحدة لا يمكن أن توجَد دون الأخرى.

تنطوي هذه الحقبة من العولمة على أخطار جسيمة. وكما هو الحال دائما، فالحضارة والهمجيّة تتجاوران. فنحن نشهد عودة الصّراعات الضّارية، العرقيّة منها والقوميّة والدّينيّة في عدد كبير من البلدان والمناطق.

وتدفعنا بعض الانفلاتات إلى الاعتقاد بأنّ حربا بين الأديان أو بين الثّقافات ممكنة الوقوع. كلّ هذا يؤكّد مرّة أخرى أنّ للعولمة سمات متناقضة ومتنافرة. فنحن نشهد في نفس الوقت كوننة تكنو- اقتصاديّة ومقاومات، بما فيها العودة إلى أديان وعبادات خصوصيّة.

هناك فكرة أخذت في البزوغ خلال العشريّات الأخيرة من القرن العشرين، ولو أنّ لها أصلا قديما. إنّها فكرة سفينة فضائيّة، هي الأرض، سفينة شراعيّة تبحر فيها الإنسانيّة. هذه المركبة تدفعها اليوم أربعة محرّكات : العلوم والتّقنية والاقتصاد والرّبح، وهي محرّكات غير خاضعة للرّقابة. أنا لا أنخرط في فكر مانويّ ولا أزعم أنّ العلم سيّئ، بل على العكس أقول إنّه قد طوّر قدرات للتّحطيم غير مسبوقة وغير خاضعة للرّقابة. إنّ التّطوّر التّكنو- اقتصاديّ الرّاهن يتسبّب في تخريب المحيط الحيويّ الّذي يتسبّب بدوره في تدهور الحضارة الإنسانيّة. بتعبير آخر، تتّجه هذه السّفينة الفضائيّة نحو كوارث دون أن يقدر أيّ كان على السّيطرة عليها.

كلّ هذا يبيّن المراوحات والتّعقيدات الموجودة في هذه العولمة المزدوجة. ألن تستطيع أوروبّا أن تنتج ترياقا جديدا يكون سليل ثقافتها، انطلاقا من سياسة مبنيّة على الحوار وعلى التّعايش، سياسة حضاريّة تقوم بإعلاء كيفيّات الحياة لا فقط بإعلاء ما هو كمّيّ، وتوقف السّباق نحو الهيمنة؟ ألن يكون بمقدورها أن تنهل من جديد من النّزعة الإنسانيّة الكونيّة الّتي نحتتها في الماضي؟ ألن تستطيع أن تعيد ابتكار النّزعة الإنسانيّة؟

الفصل الثّالث

التّفكير في همجيّة القرن العشرين

ظهرت البذور الأولى للهمجيّة التّاريخيّة، كما رأينا، منذ ستّة آلاف سنة في حضن الإمبراطوريات الكبرى في الشّرق الأوسط. وقد استمرّت حتّى اليوم وأوجدت الأشكال المختلفة لهمجيّة الغزو والاستعمار مثل همجيّة تيمورلنك أو جنكيز خان. ولكنّ تلك الغزوات لم تشكّل إمبراطوريات دائمة، في حين سيكون لغزوات أوروبّا الغربيّة تأثيرات بعيدة المدى: فالاستعمار لن ينتهي إلاّ بعد الحرب العالميّة الثّانية، في السّتّينات، وحتّى بعد ذلك التّاريخ بالنّسبة إلى البرتغال .بداية من نهاية القرن الخامس عشر نشأت همجيّة متّصلة بفكرة الأمّة. فقد أوجدت الأمّة الحديثة بالفعل، بسبب هُجاسها في التّطهير أو التّصفية الدّينيّة ومن بعدها العرقيّة، شكلا فريدا من الهمجيّة الّتي لم تكن موجودة في الإمبراطوريّة الرّومانيّة أو في الإمبراطوريات القديمة للشّرق الأوسط أو الشّرق الأقصى. بلا شكّ، يمكن أن تكون الدّيانة التّوحيديّة، الكاثوليكيّة منها بالخصوص، وراء بعض هذا الهذيان التّطهيريّ، بسبب طابعه الإقصائيّ خاصّة، أي رفضه للأديان الأخرى. ولنسجّل أنّ الحرب العالميّة الثّانية ستصل بهذين الشّكلين من الهمجيّة إلى الحدّ الأقصى.

أردت خلال الفصل الثّاني أن أسلّط الضّوء على ظاهرة مفارقة في ظاهرها: فلئن كانت أوروبّا موطن الهيمنة الهمجيّة على العالم، فإنّها كانت كذلك موطن الأفكار التّحريريّة، كأفكار حقوق الإنسان والمواطنة، وذلك بفضل تطوّر النّزعة الإنسانيّة. لقد أخذ ممثّلو الشّعوب المستعمرة والمستعبدة الأفكار التّحريريّة ثانية، وانطلاقا من حقوق الشّعوب وحقوق الإنسان وحقوق الأمم تحقّقت مسارات الانعتاق. وفي الختام لفتت الانتباه إلى أنّ العولمة، وهي ظاهرة ولدت رمزيّا سنة 1492، قد تجلّت من خلال تجارة العبيد السّود والعديد من أشكال الاستعباد الأخرى. ولكنّي أضفت أنّ عولمة ثانية بدأت تشقّ طريقها، في نفس الوقت تقريبا، إنّها عولمة حقوق الإنسانيّة، وحقّ الأمم، والدّيمقراطيّة. وأخيرا، فنحن نعيش اليوم في عولمة متناقضة: ذلك أنّ التّقدّم الرّائع للعولمة التّكنو- اقتصاديّة يخلق عولمة مواطنيّة وإنسانيّة، بيد أنّه يخنقها أيضا.

أصل الآن إلى مسألة بروز الكليانيات، وهي ظاهرة أوروبّيّة حديثة أخرى .أحيانا، يتمّ نقد استخدام هذه العبارة نفسها «كليانيّة» لوصف

أنظمة مختلفة يمكن أن يكون النّظام السّتالينيّ أو الهتلريّ منها. وأنا أرى أنّه ينبغي أن نتبنّى وجهة نظر مركّبة تظهر الفروق والمقابلات مثلما تبرز التّشابهات والتّماثلات. كما أنّه لا ينبغي التّسرّع في تبرير كليانيّة حمراء من أجل إدانة أقوى لكليانيّة سمراء. إنّ نمط التّفكّر الّذي يقودني يمنعني من أن يكون تفكيري أحاديّ الجانب ومانويّا، وقد أبيت أن أنسب الكمال إلى أوروبّا وأن أشيطنها، مع إدراكي التّامّ بأنّها قد أنتجت السّرّاء والضّرّاء. وفي ذات النّسق الفكريّ، أرفض أن أميّز بين علم « جيّد» وعلم «سيّء»، الخ. ولا أظنّ أيضا، كما حاولت أن أبيّن سابقا، أنّ هناك عولمة «حسنة» وأخرى «سيّئة».

لا بدّ لي أوّلا من القول إنّه لم يوجد تفكير في الكليانيّة، مثلما وجد تفكير في الرّأسماليّة (ماركس)، وتفكير في الدّيمقراطيّة (مونتسكيو، توكفيل)، وتفكير في الدّيكتاتوريّة. فقد انبجست الكليانيّة خارج كلّ توقّع . إنّها ثمرة صيرورة تاريخيّة متأتّية من الحادث الهائل الّذي تمثّل في الحرب العالميّة الأولى. لقد كانت هذه الحرب انفلاتا لهمجيّة قاتلة وفي الوقت نفسه عملا انتحاريّا لأوروبّا .لنبدأ بحالة الشّيوعيّة السّوفييتيّة، بؤرة الكليانيّة السّتالينيّة. إنّ الماركسيّة في الأصل تفكير ثريّ جدّا ومازال معاصرا جدّا، خصوصا في ما يتعلّق بقضايا العولمة. ولكنّ ضعفه يكمن في عدم تناوله حقّا لمسألة السّياسيّ. فماركس فهم فقط الدّولة باعتبارها أداة للطّبقة المهيمنة، أي باعتبارها بنية في منطق حرب الطّبقات والعلاقات الطّبقيّة. فدرس في العمق الصّراعات الاجتماعيّة ولكنّه لم يهتمّ بما هو سياسيّ بالمعنى الحصريّ للكلمة.

أدّى الفكر الماركسيّ إلى ظهور فرعين صار أحدهما بسرعة الاشتراكيّة الدّيمقراطيّة الألمانيّة، انطلاقا من تشكيل الحزب الاشتراكيّ الدّيمقراطيّ زمن أنجلس. وقد تطوّر هذا الفرع الأوّل في تعارض مع أطروحة الثّورة العنيفة والشّرسة، «المساء العظيم»، حيث تلغي الهبّة البروليتاريّة الرّأسماليّة. وفضّل عليها إستراتيجيّة إصلاحيّة، تدرّجيّة، وضّحها برنشتاين .Bernsteinوفي بداية القرن العشرين، حدث انشقاق في الحزب الاشتراكيّ الدّيمقراطيّ الرّوسيّ بين توجّه أغلبيّ «بلشفيّ» وتوجّه أقلّيّ «منشفيّ». وأخذ الحزب البلشفيّ يتشكّل شيئا فشيئا داخل روسيا القيصريّة في ظروف

السّرّيّة والقمع البوليسي. وهو تنظيم متمركز، شبه عسكريّ، يهدف إلى السّيطرة الجيّدة على أعضائه، في سبيل تفادي العناصر المندسّة من البوليس القيصريّ، «الأوكهرانا». فخاصّيات البلشفيّة حينئذ مرتبطة بحدث ظهورها في روسيا القيصريّة .في سنة 1914 كان مايزال حزبا صغيرا جدّا وكان أغلب قادته في المهجر. ومن جهة أخرى، كانت الماركسيّة في تلك الفترة قد فقدت الكثير من جاذبيّتها في الوسط الثّقافيّ الرّوسيّ، بسبب خاصّيتها المحدودة والفئويّة. وكانت لرسالة تولستوي الّتي تمجّد الأخوّة الشّاملة، التّأثير الأكبر في الأنتلّيجانسيا الرّوسيّة الحسّاسة جدّا تجاه التّعقيدات البشريّة.

كانت الثّورة البرجوازيّة هي هدف البلاشفة. إذ كانوا، وفي مقدّمتهم لينين، مقتنعين فعلا بأنّ الثّورة البورجوازيّة سابقة على الثّورة الاشتراكيّة. فلا بدّ للرّأسماليّة والبرجوازيّة والبروليتاريا أن تتطوّر حتّى تتمكّن هذه الأخيرة القويّة عددا وفاعليّة من الإطاحة بالمجتمع البرجوازيّ. وخلال الحرب، كانت الهزائم الرّوسيّة العديدة قد أدّت إلى ثورة ديمقراطيّة، أفضت إلى الإطاحة بالقيصريّة وإلى صعود الاشتراكيّ الدّيمقراطيّ كيرنسكي إلى دفّة الحكم. وقد اتّضح أنّه عاجز عن قيادة الحرب وعن مفاوضات السّلام. وضاعف فشله في دمقرطة الجيش وأدّى إلى قيام مظاهرة عمّاليّة في بيتروغراد- سان بيترسبورغ سابقا ولينينغراد لاحقا- والتحق البلاشفة بالحركة وفرضوا ببراعة فائقة الأمر التّالي : «الأرض للمزارعين»، وهو ما ألهب حماس الموجيك (أي المزارعين الرّوس [المترجم])، و«كلّ السّلطة للسّوفياتات»، أي لمجالس العمّال الّتي كانت قد تشكّلت في مصانع بيتروغراد.

آنذاك، وقع فجأة حدث ذو أهمّيّة قصوى: إنّها أطروحات أفريل للينين .أكّد فيها أنّه لا بدّ أخيرا من اختصار الثّورة البرجوازيّة في روسيا . وأنّه يمكن لثورة في روسيا، باعتبارها الحلقة الأضعف في العالم الإمبرياليّ والرّأسماليّ، أن تطلق الثّورة الاجتماعيّة في البلدان الصّناعيّة الكبرى مثل أنجلترا وألمانيا وفرنسا. وقد وجد لينين صعوبة كبيرة في إقناع رفاقه البلاشفة بمشروعيّة هذه الأطروحة، ولكنّه توصّل إلى ذلك. وعندها، أعدّ لانقلاب أكتوبر. فاقتحم السّوفيات المدعومون بجنود متمرّدين القصور ومؤسّسات السّلطة في بيتروغراد. ولم تكن هذه الثّورة يتزعّمها البلاشفة

فحسب، بل كذلك الفوضويون والاشتراكيون الثّوريون الّذين كانوا يقاسمونهم الرّؤية. بعد ذلك، تمّت الدّعوة إلى انتخابات الجمعيّة التّأسيسيّة الّتي كانت أوّل جمعيّة ديمقراطيّة في روسيا. وعندما وجد البلاشفة أنفسهم أقلّيّة، حلّ لينين فورا تلك الجمعيّة. حاولت الجيوش البيضاء أن تستعيد بيتروغراد، فاندلعت حينئذ حرب أهليّة. وسيقع التّدخّل الأجنبيّ منذ نهاية الحرب العالميّة الأولى. في تلك الظّروف، بدأ بصفة مبكّرة مسار من التّشدّد الأقصى. فتمّ إقصاء الفوضويين وكذلك الاشتراكيين الثّوريين، وتحوّل الحزب البلشفيّ إلى حزب وحيد يدير روسيا الّتي تحوّلت إلى اتّحاد سوفييتيّ. ولكنّ الوضع الاقتصاديّ كان كارثيّا، وكانت المجاعة تهدّد الجميع في كلّ مكان. فقرّر لينين وضع السّياسة الاقتصاديّة الجديدة NEP. وتتمثّل في فسح المجال لاقتصاد السّوق عبر منح شيء من الحرّيّة إلى صغار المزارعين والمقاولين والتّجّار. وهو ما ساعد على بداية إعادة بناء اقتصاديّ. ولكنّ ستالين سيلغي السّياسة الاقتصاديّة الجديدة سنة 1930.

خلال السّنين الممتدّة بين 1920 و1924، أي بعد الانتصار على الجيوش البيضاء وتراجع التّدخّل الأجنبيّ، لم يتشكّل في الإتّحاد السّوفييتيّ مجتمع ذو نمط جديد، أي مجتمع قائم على العلاقات الأخويّة. لم يتمّ تأسيس سلطة بروليتاريّة حقيقيّة، بل إنّ ما حصل بسرعة كبيرة هو أنّ الحزب لم يكتف فقط بالسّيطرة على الطّبقة العاملة، بل قمعها. وتحت قناع ديكتاتوريّة البروليتاريا كانت تمارس ديكتاتوريّة على البروليتاريا. فسنة 1921، ثار بحّارة قلعة الـقرونشدات Kronstadt، وكانوا يطالبون بتنفيذ برنامج شعبيّ بحقّ، برنامج اشتراكيّ وديمقراطيّ. ولكنّ تروتسكي، قائد الجيش الأحمر آنذاك، ارتكب في حقّهم مجزرة غاشمة.

إنّ فشل الثّورة الرّوسيّة هو بالأساس فشل ثقافيّ، لأنّه لم تكن هناك حينئذ ثقافة اشتراكيّة. ولم تكن توجد بالمثل ثورة عالميّة. وهذا النّقص سمح للسّتالينيّة بالنّجاح. فالسّتالينيّة تخلّت كلّيّا عن المنظور الثّوريّ العالميّ، و لم تعد تسعى إلاّ لبناء الاشتراكيّة في بلد واحد، عن طريق التّطوير الصّناعيّ. إنّ فشل الفكرة الاشتراكيّة الأخويّة الإنسانيّة هذا، يماثل تقريبا الفشل الرّوحيّ للمسيحيّة الّتي، بتعصّبها، شوّهت رسالة المسيح الأصليّة. فقد

قال المسيح لأتباعه بأنّه سيعود إليهم وهم أحياء. وقد ظلّ أتباعه وذرّيته طوال ما يربو على القرن على قناعة بأنّ القيامة كانت قريبة، وبأنّ المساء الكبير سيأتي. وحين صار من الواضح أنّه لن يكون هناك مساء كبير، قاموا بتأسيس كنيسة تراتبيّة منظّمة و«كليانيّة» بالقوّة بمعنى ما. وهكذا، فقد أدّى فشل رسالة المسيح الافتدائيّة إلى انتصار الكنيسة الكاثوليكيّة. وبالمثل، يمكننا القول إنّ فشل الاشتراكيّة الثّقافيّ في الإتّحاد السّوفييتيّ قد أدّى إلى تطبيق الاشتراكيّة الواقعيّة والى التّطوّر المذهل لقوّتها، تحت سيطرة ستالين.

لأوّل مرّة، يقوم نظام كليانيّ. فما دلالة ذلك؟ يعني هذا أوّلا أنّ جميع عناصر المجتمع المدنيّ، السّياسيّ منها والاقتصاديّ والثّقافيّ والبيداغوجيّ يضاف إليها الشّرطة والجيش والشّباب، هي خاضعة لرقابة الحزب وإدارته. يصبح هذا الأخير مركزا كلّيّ المقدرة وكلّيّ السّلطة في الآن نفسه. فالحزب وقادته يفترض أنّهم يمتلكون المعرفة المطلقة بقوانين المجتمع والتّاريخ، وهي معرفة خاصّة بالماركسيّة- اللّينينيّة. الكليانيّة حينئذ ليست رقابة الدّولة المفرطة، بل هي إقامة حزب له سلطة ضخمة ويراقب الدّولة. فلم تعد الدّولة سوى أداة بين أيدي الحزب الّذي يراقب كلّ شيء. ويمكن تعريف الكليانيّة بأنّها تنظيم كلّيّ انطلاقا من حزب واحد. فمثلما يقوم نظام تيّوقراطيّ على فرعون - إله عارف بكلّ شيء وقدير على كلّ شيء -كذلك تنهض الكليانيّة على نظام يُفترض فيه أن يكون القادة على علم بكلّ شيء، وأن تكون لهم معرفة حقيقيّة وثاقبة. على هذه المعرفة الّتي تثبت نفسها باعتبارها مطلقة، تقوم سلطة مطلقة.

من المهمّ أن نؤكّد أنّه لا وجود هنا لحتميّة تاريخيّة. فلم يكن على ثورة أكتوبر بالضّرورة أن تؤدّي إلى كليانيّة ستالينيّة، ولم يكن يوجد في الماركسيّة نفسها أيّ منطق يوجب بالضّرورة أن تفضي إلى الهمجيّة الكليانيّة. فالكليانيّة لم تكن متوقّعة، بل إنّها لم تكن حتّى مطلوبة عن دراية وعن قصد، كما يظنّ ذلك أولئك الّذين يختزلون التّاريخ دائما في سلسلة من المؤامرات. توجد في الماركسيّة بعض العناصر الّتي تسمح بالانحراف الكليانيّ، بينما توجد عناصر أخرى تفضي إلى دروب أخرى. ولم يكن هذا الانحراف من جهة أخرى قد نظّر له حتّى لينين. بل إنّه على العكس من ذلك، قد أعلن في كتابه

«الدّولة والثّورة» أنّ ما ستفضي إليه الثّورة هو انحطاط الدّولة وإزالتها. في الحقيقة، أقيم الإتّحاد السّوفييتيّ عقب سلسلة من الاضطرابات التّاريخيّة. وسوف يستمرّ، من بعض النّواحي، بسبب تخلّف البيروقراطيّة القيصريّة الّتي كان هو وريثها وبسبب الحصار الرّأسماليّ الّذي سوف يقوّي من نزعاته التّضييقيّة.

كان موسّوليني في البداية اشتراكيّا. إذ أسّس سنة 1919 «حزمات القتال» ، ولم يكن بعد حزبا، بل كان، في أوقات الاضطرابات القصوى، تجمّعا لرابطات قدامى المحاربين والنّقابيين. كان العنصر القوميّ حادّا، وقد أثارته الخيبات المتأتّية من المعاهدة الّتي اعتبرتها إيطاليا بعد الحرب ظالمة .معاهدة كان نتيجتها الشّعور بإهانة حقيقيّة بما أنّ إيطاليا كانت في صفّ المنتصرين. وصل موسّوليني إلى السّلطة سنة 1922. فعقب المسيرة نحو روما، اضطرّ الملك فيكتور- أيمانيّال الثّالث إلى أن يسلّمه مقاليد السّلطة. واستمرّت المؤسّسة البرلمانيّة في عملها حتّى سنة 1925، ولكن بعد أن اغتال الفاشيون ماتّيوتّي، قامت القوانين الفاشستيّة بتنظيم الدّيمقراطيّة على قاعدة الحزب الواحد. ومع ذلك، لم تكتمل هذه الكليانيّة، فقد ظلّ بداخله قطاع يضمّ الملكيّة، وكانت هناك تسوية مع الكنيسة، كما استمرّت الرّأسماليّة في عملها. والجدير بالملاحظة خصوصا هو المقوّم القوميّ. فالفاشيّة الإيطاليّة هي قوميّة - فاشيّة، وهي مثل النّازيّة الألمانيّة قوميّة- اشتراكيّة. نشأت بالتّأكيد انطلاقا من الظّروف الاقتصاديّة الكارثيّة لما بعد الحرب، ولكن أيضا وخصوصا من المشاعر القوميّة المحبطة، والمثارة.

تطوّع هتلر، وهو نمساويّ، في الجيش البافاريّ خلال الحرب العالميّة الأولى. وانضمّ سنة 1925 إلى حزب صغير، هو حزب العمّال القوميّ الاشتراكيّ الألمانيّ، حيث الإيديولوجيا الاشتراكيّة على صلة وثيقة جدّا هنا أيضا بالايديولوجيا القوميّة. سنة 1924، وعلى إثر محاولة انقلاب فاشلة في ميونيخ، بنى هتلر في السّجن مذهبه في "كفاحي Mein Kampf : "يتضمّن هذا النّصّ فعلا جوانب عنصريّة في جوهرها، ومعادية للسّاميّة، وكذلك فكرة أنّ ألمانيا لا بدّ لها من أن توسّع من مجالها الحيويّ، Lebensraum . ويثور على واقع أنّ ألمانيا كانت محرومة من

المستعمرات في إفريقيا أو غيرها. حينئذ، ستكون أوروبّا الشّرقيّة مجال ألمانيا الحيويّ. وبما أنّ النّظريّة العنصريّة تؤكّد على تفوّق الآريين الألمان وعلى دونيّة السّلاف، فإنّ أوكرانيا هي الّتي كان عليها نوعا ما أن تهب نفسها للاحتلال الألمانيّ. ظلّ حزب العمّال القوميّ الاشتراكيّ قليل الأهمّيّة حتّى انتخابات 1930، الّتي على إثرها التحق 130 نائبا نازيّا بالبرلمان. فكيف نفسّر ذلك؟

الأزمة الاقتصاديّة العالميّة الكبرى الّتي بدأت سنة 1929 بوول ستريت بالولايات المتّحدة اكتسحت ألمانيا بقوّة هائلة. كانت ألمانيا في ذلك الوقت البلد الأكثر تصنيعا في أوروبّا، فتسبّبت تلك الأزمة الّتي طالت جميع قطاعات المجتمع في بطالة قسم كبير من الطّبقة العاملة. والى ظروف البطالة والأزمة الاقتصاديّة تلك، يضاف الإحساس بالمهانة القوميّة. فقد حرمت معاهدة فرساي ألمانيا من مناطق ناطقة بالألمانيّة ولا سيما من قسم مهمّ من بروسيا الشّرقيّة الّذي سلّم لبولونيا، وهو ما أوجد ممرّ دانتزيق. ولكنّ ما أظهرته تلك المعاهدة بالخصوص هو ضعف ديمقراطيّة فايمر Weimer. إنّ تشتّت صفوف الدّيمقراطيين قد سمح لهتلر لا بالحصول على الأغلبيّة المطلقة في البرلمان، وهو ما لم يحصل عليه أبدا، وإنّما بمضاعفة قواه وتمثيليته. وعندما ترشّح لرئاسة الجمهوريّة فشل، وكان هندنبورغ هو من فاز بها. عندئذ، تفاوض هتلر مع أحزاب اليمين ليشكّلوا أغلبيّة. ونجحت المناورة، إذ كلّفه رئيس الجمهوريّة بمنصب المستشار. حصل كلّ هذا في إطار من الشّقاق الكارثيّ. فالحزب الشّيوعيّ آنذاك كان عدوّه الأوّل هي الاشتراكيّة الدّيمقراطيّة، فاعتقد الشّيوعيون أنّه لو يصل هتلر إلى الحكم، فسوف يسمح لهم عجزه عن حلّ المشاكل الاجتماعيّة والاقتصاديّة بالوصول إلى السّلطة. في هذه الظّروف، وفي إطار قانونيّ،سُمّي هتلر مستشارا لحكومة الرّايش من قبل الماريشال هندنبورغ، في 30 جانفي من سنة 1933. وسرعان ما أصدر مرسوما بحلّ الحزبين الشّيوعيّ والاشتراكيّ، ومنذ سنة 1933تأسّس الـڤـاستابو (أي البوليس السّرّيّ للدّولة : [المترجم]). وتقرّر إنشاء معازل للمعارضين، وفي سنة 1933، أي بعد قليل من تولّيه السّلطة، أعلن الحزب النّازيّ حزبا وحيدا في البلاد. كانت وحدات الحماية SS و SA (– Schutz

Staffel، هو العضو في تنظيم البوليس العسكريّ للحزب النّازيّ [المترجم]) ، وهي جماعات مسلّحة توفّر له من البداية قوّة ومهابة. وهو ما مكّنه من القيام بتصفية عنيفة لمعارضيه السّياسيين، وأيضا من إعلان التّدابير الأولى المعادية لليهود ومن تنفيذ عمليات التّعذيب الأولى. وهكذا، غادر عدد من اليهود ألمانيا. فلم يبدأ هتلر بعد في قطع الطّريق أمام هروبهم، لأنّ المطلوب حينها هو عزلهم وتهميشهم.

كانت المعارضة لهتلر شديدة عندما ارتقى إلى الحكم في ألمانيا الدّيمقراطيّة تلك زمن فايمر، ولكن على خلاف توقّعات السّياسيين، فإنّ النّجاح الاقتصاديّ سيحقّق له شعبيّة كبيرة. فحتّى قبل انفجار صناعة الأسلحة، نجح الدّكتور شاخت، وزير هتلر للاقتصاد من 1934 حتّى 1937، بوصفات اقتصاديّة غير معهودة في إعادة الآلة الصّناعيّة إلى السّكّة والقضاء على البطالة. إنّنا كثيرا ما ننسى هذا العامل المتمثّل في النّجاح الاقتصاديّ، فقد كان ورقة مهمّة للهتلريّة. وما استمرار عجلة الاقتصاد الألمانيّ في الدّوران حتّى النّهاية، حتّى خلال التّقلّبات العسكريّة الأسوأ ورغم عمليّات القصف الهائلة الّتي كان يقوم بها جيوش الحلف، إلاّ دليل على مدى الأهمّية الكبرى الّتي كانت للعامل الصّناعيّ والاقتصاديّ. وصول النّازيّة كان راجعا أيضا إلى سلسلة من النّجاحات على المستوى السّياسيّ. فإعادة عسكرة الرّوهر Ruhr كانت مرحلة حاسمة، حتّى أنّ الفرنسيين لم يحرّكوا ساكنا عندما أعاد الجيش الألمانيّ احتلالها. مثال آخر على ذلك هو ضمّ النّمسا وأنشلوس .أمّا ما يتعلّق بضمّ سيداتس Sudètes، هذه الكتل الجبليّة الّتي كانت تمثّل حصونا لتشيكوسلوفاكيا وتسكنها أغلبيّة ألمانيّة، فكانت ضربة كبيرة تعبّر عن جسارة هتلر وصلفه. فقد نجح في الحصول من الفرنسيين والأنجليز، عن طريق اتّفاقات ميونيخ الّتي كانت خرقا فاضحا لالتزامات فرنسا وأنجلترا تجاه تشيكوسلوفاكيا، على إلحاق سوداتس بألمانيا. وفي الحال، اجتاحت القوات المسلّحة Wehrmacht تشيكوسلوفاكيا وألحقت 30.000 كلم2 من أراضيها.

في بلاد مثل فرنسا، ذات التّقاليد اليساريّة السّلميّة العريقة والمتأثّرة بتجربة الحرب العالميّة الأولى، فإنّ العامل المحدّد هي الإرادة السّلميّة. وإزاء تلك الغزوات الهتلريّة، انقسم معسكر السّلام بصفة هائلة : فبالنّسبة إلى البعض كان هتلر يطبّق حقّ الشّعوب في تقرير مصيرها، بينما اعتبر الآخرون أنّ تلك العسكرة وذاك النّهم للضّمّ يثيران القلق إلى أقصى درجة.

النّازيّة هي نتاج كارثيّ للهمجيّة الأوروبّيّة، وصادرة في الأمّة الأكثر ثقافة في أوروبّا. إذن، فالشّعراء الكبار مثل ڤوته، والموسيقيون العظام مثل بيتهوفن، والتّقاليد الدّيمقراطيّة الّتي كانت موجودة قبل الحرب العالميّة الأولى بوقت طويل، لا يكفون وحدهم لاحتواء الهمجيّة. هذه الحقيقة كثيرا ما أثارت العقول، ولكن لا يجدر بنا الوقوف كثيرا عندها. على الأقلّ ليس إلى حدّ نسيان أنّ السّتالينيّة والفاشيّة والنّازيّة، وإن نشأت حقيقة من الحضارة، بما فيها من منتجاتها الأكبر رفعة، فهي لا تنبجس إلاّ من شروط تاريخيّة محدّدة. إنّها أساسا نتائج الحرب العالميّة الأولى. فلو كانت الظّروف أخرى مع قليل من المصادفات السّعيدة ربّما، لكان من الممكن أنّ نفس المنابع الحضاريّة تستطيع تجنّب الكليانيّة. لو لم تكن الحرب العالميّة الأولى لما وجدت الشّيوعيّة ولا الفاشيّة ولا النّازيّة. ولولا أزمة 1929 لما حقّقت النّازيّة نجاحات سياسيّة سنة 1933. إنّهما الحرب والأزمة اللّتان حملتا هتلر إلى السّلطة. فالنّازيّة إذن هي نتاج متأخّر للحرب العالميّة الثّانية، مثلما أنّ الشّيوعيّة هي نتاج فوريّ. وهما معا، كانا منتجين متعاونين للحرب العالميَة الثّانية. حين رأى ستالين في الواقع أنّ الغربيين كانوا يرضخون لهتلر في ميونيخ، صار في الأخير يخشى أن يتّفقوا على إطلاق يديه، فاستبق هو الأحداث ووقّع الميثاق الألمانيّ-السّوفييتيّ مع هتلر بواسطة ريبّنتروب. وبمقتضى هذا الميثاق، ستهجم ألمانيا على بولونيا، ولكنّه يتضمّن أيضا عددا معيّنا من الشّروط منها احتلال الإتّحاد السّوفييتي لقسم من بولونيا وسيطرته على بلدان البلطيق ليتوانيا واستونيا ولاتونيا. وبفضل هذا الاتفاق، صارت يدا هتلر مطلقتين في الشّرق وبإمكانه أن يطلق حربه الخاطفة على بولونيا. وبعد ذلك، كانت الحملة على فرنسا

والتّدمير الكلّيّ للجيش الفرنسيّ. إنّ التّحالف بين الكليانيّتين هو الّذي أشعل فعلا الحرب العالميّة الثّانية.

لنتناول الآن السّؤال المكرور المتمثّل في التّقويم المقارن للكليانيّتين الهتلريّة والسّتالينيّة. يمكننا أن نلاحظ منذ البدء فرقا بديهيّا بينهما في الأسس الإيديولوجيّة لهذين النّظامين. فالإيديولوجيا الشّيوعيّة هي أممية كونيّة وتنادي بالمساواة. أمّا الإيديولوجيا النّازيّة فهي عنصريّة. إنّ أوراق النّازيّة قد أسقطت أرضا منذ «كفاحي»، في حين أنّ الإيديولوجيا الأخويّة للشّيوعيّة، المبيّنة في الإنجيل الّذي هو البيان الشّيوعيّ لماركس، قد وارت طويلا جرائم الكليانيّة السّوفييتيّة. حتّى أنّ الملايين من البشر كانوا يظنّون أنّ السّوفييت أحرار وسعداء. هناك نقطة أخرى للمقارنة تتعلّق بالقوميّة، وهنا أيضا سيرغب الكثيرون في اعتبار أنّ هذه النّقطة تظهر فرقا في الهمجيّة، فهي تبدو أقلّ في النّظام السّوفييتيّ. صحيح أنّ القوميّة هي منبت النّازيّة، بينما الأمميّة هي أساس الثّورة السّوفييتيّة. في القوميّة النّازيّة، يلعب العداء لليهوديّة دورا جوهريّا. وقد كان بمثابة الملاط لذاك الشّعور القوميّ، وفقا لمنطق كبش الفداء الّذي تحدّث عنه رينيه جيرار. بيد أنّ الأمميّة لم تكن غائبة في النّازيّة. ففي نهاية الحرب، كان هناك انتماء أوروبّيّ في وحدات الحماية SS : فبعضهم كان نورفيجيّا، وبعضهم فرنسيّا، الخ. كانوا يتقاسمون أسطورة أوروبّا القوميّة - الاشتراكيّة، ولكن دائما على أساس عنصريّة الإقصاء، حيث سيتمّ إبعاد جميع العناصر النّافرة.

بما أنّ الكليانيّة السّوفييتيّة لا وجود في منشئها لأساس قوميّ، فإنّ نصيب العداء لليهوديّة كان منعدما فيها في البداية. فقد كان في داخل الحزب البلشفيّ عدد مهمّ من اليهود، بدءا بتروتسكي. من جهة أخرى، فإنّ التّحرير، مع الفظاعة الّتي سيتمّ الكشف عنها باكتشاف معسكرات الإبادة، سيمنع مظاهر الرّفض الّتي بدأت في الظّهور. ولكن شيئا فشيئا، سيقع تهميش اليهود في صلب الكومينترن (بل إنّ ستالين كان ينوي نفيهم إلى سيبيريا على إثر المكيدة المزعومة لأصحاب «الجمّازات البيضاء»)، وأثناء الحرب الباردة، لم يعد العداء لليهوديّة، والتّنديد بـ «المواطنة العالميّة اليهوديّة» من الأمور الّتي تخفى. وهكذا نرى، على الأقلّ على مستوى همجيّة التّعصّب وإقصاء

الآخر، أنّ النّظامين، رغم الاختلاف الشّديد بينهما في الطّموحات، ينتهيان إلى التّلاقي. أمّا فيما يخصّ الهمجيّة الاستئصاليّة، فسأتحدّث عنها لاحقا، مع أنّه بوسعي القول منذ الآن إنّ الأمور هنا أيضا قابلة للمقارنة.

ينبغي الآن طرح مسألة العنصريّة النّازيّة ومحاولة فهمها. إنّ الجمع بين القوميّة والعنصريّة ليس بالتّأكيد بدعة نازيّة. ففي القوميات المتهيّجة والفظّة توجد أصول عنصريّة. حتّى في أسبانيا المستعادة، نجد، كما حاولت تبيينه، موضوع نقاوة الدّم. بيد أنّه لكي يكون بإمكاننا الحديث عن عنصريّة، لا بدّ من أن يظهر تصوّر عرقيّ مشرّع له، ومسوّغ من الأنتروبولوجيا العلميّة. لكنّ الحاصل هو أنّ العلم الأنتروبولوجيّ، دون أن يكون نازيّا، قد أصرّ طويلا على أنّ الأجناس تختلف كيفيّا، مؤكّدا بذلك على تفوّق بعضها على البعض الآخر. وأتذكّر أنّه في كتب الجغرافيا الموجزة زمن طفولتي، كان الجنس الأبيض يعرّف بخصاله السّامية، في حين أنّ «السّود» كانوا يقدّمون باعتبارهم كسالى وبليدين، أمّا «الصُّفر»، فهم مهرة ومكرة. وفي تغنّي كيبلنغ Kipling بالرّجل الأبيض استحضار لهذه العنصريّة الكامنة.

ثمّة نوع من الأنتروبولوجيا، كتلك الّتي مثّلها جورج فاشي لابوج، Georges Vacher Lapouge (1854- 1936) توسّع في مبحث تفوّق «الجنس الآري» وذلك منذ القرن التّاسع عشر. ونعلم أنّ ڤوبينو Gobineauكان قد نافح بدوره عن ذلك التّفوّق وأنّه قد أثّر بواسطة فاڤنار Wagnerفي هتلر. كما أنّ تشمبرلاين Chamberlain الّذي ألّف سنة 1899 كتاب «أسس القرن التّاسع عشر» زعم القدرة على التّأسيس العلميّ لتفوّق الآريين العرقيّ. وقد صاغ نظريّة لعنصريّة لم تكن بعد قائمة على التّراتبيّة بشكل نسقيّ. وهو مع ذلك من أدخل مقياس نقاوة الدّم في التّعريف بالجنس الآري، معتبرا اليهوديّ ذا دم مختلط، وبالتّالي أدنى من النّاحية البيولوجيّة. وشيئا فشيئا، اتّخذت الأمور منحى شديد الخطورة، بأن حلّت معاداة السّاميّة (عرقيّا) محلّ معاداة اليهوديّة (دينيّا). صحيح أنّ معاداة اليهوديّة كانت عنيفة وهمجيّة، ودفعت إلى ارتكاب مذابح وإعدامات بلا انقطاع، ولكن بما أنّها كانت تضع البعد الدّينيّ في المقام الأوّل، فإنّ اليهود

الّذين تنصّروا عن اقتناع كانوا بمأمن من ذلك. أمّا معاداة السّاميّة، فهي موقف رافض لليهوديّ باعتباره آخرَ عرقيّا.

معاداة السّاميّة تحارب ما تفترض أنّه انحراف جذريّ وعرقيّ في اليهود .فهذا العرق الفاسد حامل لفيروس يهدّد الماهيات القوميّة بالدّمار الكلّيّ .هكذا نرى كيف أنّ معاداة السّاميّة قد كانت بمثابة الوسيلة الهذيانيّة الّتي ستنقذ الماهيات القوميّة من خطر التّحلّل والفساد. ضمن هذا المسار، من الأكيد أنّ الأفكار العنصريّة قد لعبت الدّور الهامّ الّذي أشرت إليه سابقا، ولكن لا يجب أن ننسى وطأة العوامل التّاريخيّة والاقتصاديّة ومناخ الكارثة الإنسانيّة الّتي تسبّبت فيها الحرب العالميّة الأولى. سيكون الأمر سهلا جدّا لو أنّ الهمجيّة موجودة في الأفكار فقط .نعلم جيّدا بأنّه قد كان هناك عداء فرنسيّ للسّاميّة انطلق بصفة خاصّة بمناسبة قضيّة دريفيس Dreyfus. وفي كتابه «فرنسا اليهوديّة»، يصوّر إدوارد دريمون Edouard Drumont اليهود على أنّهم عنصر شرّ تسلّل إلى المجتمع بأسره ووضعه في خطر. إنّ تلك القضيّة لم توقظ فقط الرّوائح الكريهة للهمجيّة، بل أيقظت أيضا تقليدا جمهوريّا وإنسانيّا عريقا سيسمح كفاحه المستميت بإثبات براءة دريفيس. وهكذا انتصرت فرنسا الدريفيسيّة على فرنسا المعادية للدّريفيسيّة. ولن يتحقّق الثّأر المعادي للدريفيسيّة إلاّ أثناء حكومة فيشي. إذن، فقد شهدت معاداة السّاميّة توقّفا أو بالأحرى نزاعا في فرنسا الجمهوريّة، على الرّغم من أنّ المعادين للسّاميّة لم يكفّوا عن هياجهم، وركّزوا جهودهم على اليهوديّ المتحرّر، المعترف به مواطنا، والمندمج في المجتمع. فهو الأخطر في نظرهم لأنّه يبدو في الظّاهر مثل الآخرين ولكنّه ليس كذلك، إذ لديه «غرابة تثير القلق». فكلّما كان اليهود شبيهين بالآخرين صاروا خطرا حاملا لكلّ ما من شأنه أن يتسبّب في تفكّك أمّة ما، فهم يهود ـ بلاشفة، وهم يهود ـ رأسماليون، وهم يهود ـ ماسونيون، الخ.

إزاء الهجمات المعادية للسّاميّة، وفي محاولة لتجاهلها أو مقاومتها، طوّر اليهود ثلاثة أنماط على الأقلّ من ردود الأفعال. أوّلها تجلّى عند أولئك الّذين كانوا يشعرون بأنّهم قد اندمجوا في المجتمع، ووجدوا أنفسهم داخل مقولة المواطن، ويساهمون في الوجود القوميّ مثل اليهود

الألزاسيين أو الميديين من منطقة ميدي. لقد كانوا يعتبرون أنفسهم فرنسيين، بما أنّ فرنسا قد اعترفت بهم على هذا النّحو. ففرنسا لم تكن فقط وطن أمثال ڤوبينو أو لابوج أو دريمون، بل أيضا، وخصوصا، فرنسا الاندماج الّتي تدافع عن حقوق الإنسان والمواطن وانتصرت على مضطهدي دريفيس. رغم ذلك، كانوا يعيشون تقاطبا يجعلهم يشعرون بطريقة لاواعية في غالب الأحيان بالطّابع الضّيّق جدّا للإطار القوميّ. من هنا جاء النّمط الثّاني من ردود الأفعال :فالبعض طوّر بوعي نوعا من الميتا ـ قوميّة. فقد كانوا يشعرون بأنّ ما يحرّكهم هي إرادة تجاوز الأمّة. فهم من ناحية كانوا مقتنعين بأنّه ستوجد على الدّوام، في أيّ إطار قوميّ مهما كان، نزعات معادية لليهود ترفض وجودهم، ومن ناحية ثانية بفعل نزعة كونيّة. إذ ستبدو لهم الأمميّة بمثابة الحلّ لتجنّب أخطار القوميّة. وستقوم الاشتراكيّة بتغذية الحلم بمجتمع آخر، وبعالم آخر. كان هذا الحلم حلم دون كيشوت، الّذي تخيّله المرّانيّ سرفانتيس. كانوا إذن بين قطبين : قطب الاندماج القوميّ من جهة، وقطب الأمميّة من جهة أخرى. غير أنّ ردّ فعل ثالثا أخذ ينمو ببطء حول القطب الصّهيونيّ. فالصّهيونيّة يعود أصلها جزئيّا إلى قضيّة دريفيس. فقد حضر صحافيّ مجريّ شابّ يدعى تيّودور هرتزل مراسم الحطّ من رتبة النّقيب دريفيس .انفعل ونقم على مناخ الكراهية المعادية للسّاميّة واستخلص من ذلك أنّه على اليهود أن يكفّوا عن البحث عن الاندماج وأن يوجدوا لأنفسهم دولتهم القوميّة الخاصّة بهم. وهكذا، سينشئ الصّهاينة بسرعة مستوطنات في فلسطين .وسوف تتوسّع هذه الحركة متخطّية المراحل نحو إنشاء دولة إسرائيل.

في الأثناء، ستحدث عمليّات الإبادة في ألمانيا خلال الحرب العالميّة الثّانية. والمفارقة هي أنّ الكثير من اليهود الألمان كانوا يحقّقون هويّتهم بقوّة في الأمّة الألمانيّة. فأثناء زيارة لي إلى حيفا في إسرائيل، تمكّنت من الالتقاء بمهاجرين من اليهود الألمان في مستوطنة كبيرة. ويبدو أنّ الكثير منهم قد بكى عند الإعلان عن هزيمة ألمانيا في ستالينغراد.

والآن، كيف نفسّر أو نحاول أن نفسّر الانفلات الأخير للهمجيّة، همجيّة الإبادة بأتمّ معنى الكلمة؟ انطلاقا من سنة 1935، سنة إصدار القوانين المعادية للسّاميّة الأولى، كان الأمر مقصورا على سلب اليهود الألمان وإنكار

مواطنتهم ومنعهم من الزّواج بـ"الآريين". سنة 1941، اكتملت الهيمنة النّازيّة على أوروبّا. فوقعت سلسلة من المذابح المحلّيّة الّتي ارتكبتها وحدات الحماية تارة والجيش تارة أخرى. بموازاة ذلك، أنشأ النّازيون المعازل les ghettos مثل معازل فرصوفيا أو كراكوفيا. فمازالت الإرادة النّازيّة عازمة على طرد جميع اليهود خارج أوروبّا. وكانت فكرة ترحيلهم الجماعيّ نحو مدغشقر مطروحة. لذلك وقعت أبحاث في هذه الجزيرة للتّثبّت من أنّ الأراضي لم تكن تنطوي في باطنها على العديد من الخيرات. إنّ مشروع التّهجير الجماعيّ هذا يذكّرنا بذلك الّذي تعرّض له الموريسكيون في القرن السّابع عشر. غير أنّ المنعرج الّذي سيفضي إلى الحلّ النّهائيّ الاجتثاثي يقع بين أواخر سنة 1941 وبداية سنة 1942. ففي سبتمبر 1941، لم يستطع الجيش الألمانيّ الّذي أعاقه قدوم الشّتاء مبكّرا وقاسيا جدّا الدّخول إلى موسكو. في الأثناء، قام ستالين وكان قد أعلمه جاسوسه ريشار سورج بأنّ اليابانيين لن يهاجموا سيبيريا بإعادة قوّاته العسكريّة من الشّرق الأقصى. وسلّم قيادة جبهة موسكو إلى يوكوف Joukov النّاجع جدّا. وفي 6 ديسمبر 1941 بدأ الهجوم السّوفييتيّ المضادّ الّذي سيستمرّ من جانفي حتّى أفريل وسيدفع بالجنود الألمان إلى مسافة 350 كلم في اتّجاه الغرب. كان ذلك أوّل تقهقر عسكريّ يتعرّض له هتلر. في 7 ديسمبر، هاجم اليابانيون بيرل هاربر ودخلت الولايات المتّحدة الحرب. وللمرّة الأولى أدرك هتلر أنّ الهزيمة محتملة. لهذا، يكون تأويلا معقولا افتراض أنّه كان يريد تجنّب أن تصبح الهزيمة النّازيّة انتصارا لليهود. فقرّر تصفيتهم. تمّ وضع الحلّ النّهائيّ في 20 جانفي 1942. ومنذ ربيع 1942، بدأ التّهجير والتّقتيل المكثّفين لليهود. صحيح أنّ وصف أوشويتز Auschwitz كان كامنا في "كفاحي" وأنّ عنصريّة النّازيّة شديدة الهيجان كانت تنطوي بداخلها على الاجتثاث. غير أنّه كان ينبغي انتظار ذروة الحرب العالميّة الأولى وشبح الهزيمة ليتمّ تنفيذها في الواقع وبطريقة نسقيّة . علينا ألاّ ننسى أنّ الكراهية العنصريّة ورغبة النّازيين الاجتثاثيّة لا تقتصر على اليهود فقط. فلئن تمّ القضاء على اليهود بتعلّة الفساد وعدم نقاوة الدّم، فإنّ الغجر والرّوم سيقتلون باعتبارهم "حثالة" لا بدّ من القضاء عليها، وسيقتل المتخلّفون عقليّا بدعوى أنّهم غير جديرين بالانتماء إلى العرق

الآري. أمّا السّلاف، فحتّى وإن لم يحكم عليهم صراحة بالإبادة، فقدرهم على أيّة حال أن يكونوا مستعمَرين ومستَغلّين.

نحن نعلم أنّ عمليّة إبادة اليهود هذه، والمصير الّذي وِضع لهم خصوصا في أوشويتز، قد تمّ السّكوت عليه أو تجاهله تقريبا في فرنسا ما بعد الحرب .وهناك سببان محتملان لذلك. أوّلهما أنّ عدد المبعدين السّياسيين في فرنسا كان 86.000 وعدد المهجّرين اليهود فيها كان 75.000. في حين أنّ نسبة المهجّرين اليهود في البلدان الأخرى كانت ما بين 60% و75%، وهو ما يمثّل نسبة مئوية أعلى بكثير. وفي بلغاريا نجد أنّ عدد اليهود في نهاية الحرب أكثر منه في نهايتها. فلِمَ لم يتأثّر كثيرا هذا البلد ومعه فرنسا وحدهما بما حدث في غيرهما؟ ففي بلغاريا وبسبب الضّغط الّذي مارسته الأنتلّيجنسيا البرلمانيّة رفض الملك السّماح لهتلر بتهجير يهود بلده. أمّا في فرنسا فإنّ القناعات الجمهوريّة والإنسانيّة جعلت الكثير من المواطنين يخفون يهودا عندهم كما أنّ المقاومة وفّرت لهم هويّات مزيّفة. وأغلب اليهود المبعدين من فرنسا لم يعودوا اليها. وعندما تأسّست الجامعة الوطنيّة للمهجّرين المستعادين الوطنيين FNDIRP قامت بإعادة ضمّ المبعدين والمعتقلين والمقاومين فيها. ولم يدرج اليهود المعتبرون «وطنيين» ضمن الجامعة على أساس أنّهم يهود .في أيّامنا هذه، ينمو الاعتراف بإبادة اليهود في موازاة مع التّأكيد الذّاتيّ لهويّة يهوديّة تجد هي نفسها الدّعم من وجود إسرائيل. بشكل مطّرد، يستخدم ذكر العذاب اليهوديّ المكابد في أوشويتز لحماية إسرائيل بطريقة ما من أولئك الّذين يعتبرونها مضطهدة للفلسطينيين. فأثناء الاحتفال بذكرى تحرير أوشويتز يوم 27 جانفي 2005 عاينّا نوعا من العرض المبالغ فيه لصورة الشّهيد اليهوديّ، متناسين الغجر والسّلاف والمقاومين. وقد لفت الانتباه إلى هذا العرض المضخّم كلّ من آنّات فيفيوركا وسيمون فايل. فقد ذكّرت الأولى في كتابها "أوشويتز بعد ستّين سنة" بتركيبة المعتقل : معتقلون سياسيون، مجرمون، مثليون جنسيون، شهود يهوذا Jéhovah ، أسرى حرب سوفييت، يهود. كما أنّها ذكرت الصّعوبات الّتي تواجه تمرير صفة «جريمة ضدّ الغجر». بالمقابل، كان تأثير تلك الاحتفاليّة المركّزة حصريّا على العذاب اليهوديّ أن طالب السّود سواء في مارتينيك أو في إفريقيا

السّوداء بالاعتراف بالهمجيّة المتمثّلة في العبوديّة. أمّا فيما يتعلّق بالجزائر، فقد اعترفنا بصفة متأخّرة بمجزرة سطيف. لقد اقترف الطّرفان أثناء حرب الجزائر مجازر، ولكنّ فرنسا تحديدا هي الّتي كانت تخضع الجزائر لوصاية الاحتلال. من هنا تطالب الجزائر بدورها فرنسا بالاعتراف. باستطاعتنا القول إذن إنّ ما يطفو على سطح وعينا، من خلال تذكّر ضحايا النّازيّة وكذلك من خلال تذكّر عبوديّة السّكّان الأفارقة المبعدين وتذكّر الاضطهاد الاستعماريّ، هي همجيّة أوروبّا الغربيّة الّتي تجلّت في الاستعباد وفي إخضاع الشّعوب المحتلّة. ليست النّازيّة إلاّ أعلى مراحل الهمجيّة الغربيّة، النّازيّة الّتي كانت تقاتل الأعراق الّتي تعتبرها دنيا وفاسدة وغير خالصة : السّلاف باعتبارهم دونيين، والغجر غير خالصين، واليهود في الآن نفسه غير خالصين ودونيين ومنحرفين. ولكن، لا ينبغي لنا أن نفصل المعذَّبين اليهود عن سائر معذَّبيّ الهمجيّة.

في النّهاية، أودّ أن أشدّد على فكرة أنّه من الضّروريّ أن نتجنّب الانغلاق في فكر مانويّ، أي في فكر يطغى عليه قطب اهتمام وحيد على حساب الأقطاب الأخرى. فان ركّزنا اهتمامنا كثيرا على أوشويتز فقط نكون قد جازفنا غافلين بالتّهوين ممّا حدث للكولاك وبالمرور صامتين على همجيّات أخرى. على أنّنا حتّى لو اكتفينا بالعامل الكمّيّ فانّ عدد القتلى الّذين تسبّب فيهم النّظام المتمركز السّوفييتيّ كان أكثر بكثير. فالكولاك دامت فترة أطول من فترة الإبادة النّازيّة الّتي بدأت سنة 1942 وانتهت في بداية سنة 1945. زد على ذلك أنّ هذه الأخيرة قد انتهت بمذبحة قطفت بطريقة تراجيديّة خلال أيّام معدودة أرواح النّاجين. فحمّى التّيفوس والسّير الطّويل المنهك تحت قيادة وحدات الحماية هربا من تقدّم الحلفاء كانا قاتلين بشكل شنيع. وعندما وصل الحلفاء إلى أبواب داخو Dachau رأوا أكداسا من الجثث. فخيّل لهم أنّ فظاعة النّازيّة كانت محدودة في تأثير هذا التّكديس للأجسام. وسبب ذلك في الحقيقة هو أنّ آلة الإبادة والتّصفية كانت قد توقّفت عن العمل. فالأفران لم تعد تشتغل والجثث تكدّست. غير أنّ الفظاعة رغم ذلك لا تتعلّق فقط بتكديس الجثث بقدر ما تتعلّق بكيفيّة اشتغال آلة الموت المتقنة تلك. لا ينبغي لصورة ما مهما كانت بليغة وشنيعة أن تخفي عنّا الحقيقة. ولكنّ هذا أحيانا ما يحدث.

فالإبادة الجماعيّة لليهود تبدو لنا أكثر فظاعة من التّصفية الكثيفة في الكولاك، الّتي ليست لدينا عنها صور وتمّ إخفاؤها لمدّة طويلة. أشير إلى كلّ هذا لأقول إنّ النّزوع إلى إنكار الكولاك مقابل ذكر أوشويتز أو العكس بطبيعة الحال لا معنى له بكلّ تأكيد. لنكن حذرين إذن من الهمجيّة الذّهنيّة الّتي في سبيل أن تلطّف من جرائم السّتالينيّة بوعي أو دون وعي تجعل من الهتلريّة الفظاعة الأعلى والمطلقة.

ما يجب أن تفضي إليه التّجارب المأساويّة للقرن العشرين هي دعوى إنسانيّة جديدة : فلْيُعتَرَفْ بالهمجيّة بما هي هي دون تبسيط أو تزوير من أيّ نوع. ليس المهمّ التّوبة بل الاعتراف. ولا بدّ لهذا الاعتراف أن يمرّ عن طريق المعرفة والوعي. يجب أن نعرف ما وقع فعلا، ويجب أن نعي بتعقّد هذه المأساة العظيمة. ولا بدّ أن لهذا الاعتراف أن يشمل جميع الضّحايا من يهود وغجر ومثليين جنسيين وأرمن والمحتلّين في الجزائر أو في مدغشقر. أنّها ضروريّة إذا أردنا أن نتجاوز الهمجيّة الأوروبّيّة .لا بدّ أن نكون قادرين على التّفكير في الهمجيّة الأوروبّيّة في سبيل تجاوزها، ذلك أنّ الأسوأ مازال ممكنا. ففي قلب صحراء الهمجيّة المهدِّدة نحن الآن في حماية نسبيّة لواحة. بيد أنّنا ندرك أيضا أنّنا نعيش في ظروف تاريخيّة سياسيّة اجتماعيّة تجعل من الأسوأ مرتقبا، وبالخصوص خلال الفترات القصوى. إنّ الهمجيّة تهدّدنا، حتّى خلف الاستراتيجيات نفسها الّتي من المفروض أنّها تواجهها. وأفضل مثال على ذلك هي هيروشيما. لقد تحدّثت طويلا عن أوشويتز وعن الكولاك، ولكن يجب ألاّ ننسى هيروشيما. إنّ الفكرة الّتي أدّت إلى هذه الهمجيّة الجديدة هو المنطق الظّاهريّ الّذي يضع على كفّتي الميزان مائتي ألف قتيل تسبّبت فيهم القنبلة من جهة ومليونين بمن فيهما خمسمائة ألف من فرق التّدخّل من جهة أخرى كان يمكن أن تذهب أرواحها ثمنا لاستمرار الحرب بالوسائل الكلاسيكيّة ـ هذا لو حسبنا على الأقلّ انطلاقا من تعميم الخسائر المتكبّدة عند الاستيلاء على أوكيناوا فحسب. بجدر بنا القول أوّلا إنّ هذه الأرقام قد وقع تضخيمها عمدا، كما لا يجب علينا خصوصا أن نخشى إبراز عامل حاسم لعب دورا في اتّخاذ قرار اللّجوء إلى القنبلة الذّرّيّة. ففي وعي الرّئيس ترومان والعديد من الأمريكيين لم يكن اليابانيون سوى جرذان، بشر دونيين، كائنات دنيا. إضافة

إلى ذلك، لدينا ها هنا عمل حربيّ يتضمّن مقوّما إضافيّا من مقوّمات الهمجيّة : انّه التّقدّم العلميّ الباهر الموضوع لخدمة مشروع تصفية تكنو ـ علميّ لقسم من البشريّة. إنّي أكرّرها، الأسوأ مازال ممكنا .إذن، ما يجب علينا أن نتجنّبه بأيّ ثمن فيما يتعلّق بأوروبّا هو الإحساس بالرّضا لأنّه إحساس خاطئ دائما. لابدّ لعمل الذّاكرة أن يحمل إلينا وسواس الهمجيّة : الاستعباد، تجارة السّود، الاستعمار، العنصريّة، الكليانيّتان النّازيّة والسّوفييتيّة. هذا الوسواس، حين يندمج ضمن فكرة أوروبّا، يجعلنا ندمج الهمجيّة في الوعي الأوروبّيّ. انّه شرط لا غنى عنه إذا أردنا أن نتغلّب على الأخطار الجديدة للهمجيّة. ولكن، بما أنّ الإحساس بالرّضا هو أيضا إحساس خاطئ، فما نحتاجه هو وعي مزدوج. ضمن الوعي بالهمجيّة لابدّ أن يندمج الوعي بأنّ أوروبّا تصنع من خلال النّزعة الإنسانيّة والتّوجّه الكونيّ والصّعود المطّرد لوعي كونيّ ترياق همجيّتها الخاصّة. ذاك هو الشّرط الآخر لقهر المخاطر الحاضرة دائما المتمثّلة في همجيّات جديدة وأسوأ. لا شيء غير قابل للانتكاس ولابدّ للشّروط الدّيمقراطيّة الإنسانيّة من أن تتجدّد باستمرار، وإلاّ فإنّها ستنحلّ. تحتاج الدّيمقراطيّة على الدّوام إلى أن تعيد خلق نفسها. إنّ التّفكير في الهمجيّة هو إسهام في إعادة إحياء النّزعة الإنسانيّة. هو إذن مقاومة لها.

السّيرة الذّاتيّة لأدغار موران

1920- فيدال ناهوم، 26 سنة، يتزوّج في باريس يوم 22 جوان من لينا بيراشّي البالغة من العمر 23 سنة.

1921- ولادة أدغار ناهوم يوم 8 جويلية من فيدال ناهوم اليهوديّ السّفاريد المهاجر من سالونيك، ولينا بيراشّي. وليس إلاّ بعد فترة طويلة وتحديدا عندما صار مقاوما، سيتّخذ لنفسه اسم مانان الّذي بفعل التّحريف صار موران.

1931- توفّيت فجأة أمّه المصابة بمرض خطير في القلب وكان عمرها 34 سنة. منذئذ، سيتكفّل أبوه بمعيّة خالته كورين بيراشّي بتنشئته.

1938- غداة مونيخ، انفتح على العمل السّياسيّ وانخرط في الطّلبة الجبهويين (خليط من الاشتراكيّة السّلميّة ومعاداة النّازيّة).

1941- انخرط في الحزب الشّيوعيّ ثمّ صار في السّنة الموالية مقاوما. وبذلك عاش في سرّيّة مضاعفة : باعتباره يهوديّا وباعتباره شيوعيّا.

1945- يتزوّج أدغار من فيوليت شابيلّوبو الّتي كان يعاشرها منذ 1941. سافر إلى ألمانيا باعتباره ملحقا .....للجيش الفرنسيّ الأوّل في ألمانيا.

1946- عُيّن رئيس مكتب "الدّعاية" بإدارة الإعلام في الحكومة العسكريّة الفرنسيّة بألمانيا وأصدر عمله الأوّل بعنوان "السّنة الصّفر لألمانيا".

1947- ولادة ابنته البكر إيران Irène

1948- ولادة ابنته الثّانية فايرونيك

1950- بفضل دعم صديقه جورج فريدمان دخل إلى المركز الوطنيّ للبحوث العلميّة ضمن قسم علم الإجتماع.

1951- أقصي من الحزب الشّيوعيّ لأنّه كتب مقالا في جريدة فرانس أوبسيرفاتور. وفي نفس السّنة أصدر "الإنسان والموت".

1956- باعتباره متخصّصا في السّينما، نشر كتابين : "السّينما أو الإنسان الخياليّ"، و "نجوم السّينما". ولادة مجلّة "براهين" الّتي سيديرها أدغار حتّى سنة1962.

1959- صدور كتابه "نقد ذاتيّ" حلّل فيه التزامه في الحزب الشّيوعيّ.

1962- بعد سفر طويل في أمريكا الجنوبيّة، عاد موران إلى فرنسا ونشر كتاب "روح الزّمن". كما أصبح ريسا على مجلّة "اتّصالات".

1967- استمرّ في بحوثه في علم الاجتماع المعاصر وأصدر في هذه السّنة كتاب "تحوّل بلوزفيت"، ثمّ نشر بعد سنتين كتاب "إشاعة أورليونز".

1968- كتب مقالات عديدة حول ما سمّاه "مجتمع الطّلاّب".

1969- قضّى سنة في دجولاّ، بكاليفورنيا، حيث درس في معهد سالك للأبحاث البيولوجيّة.

1970- عُيّن مديرا للبحث في المركز الوطنيّ للبحوث العلميّة. وبمساعدة من جون هونت ودعم من مونو وفرانسوا جاكوب، شارك في تأسيس المركز الدّوليّ للدّراسات البيو- إناسيّة وللإناسة النّظريّة. أصدر "صحيفة كاليفورنيا".

1973- صدور كتاب "القياس المفقود" الّذي يوضّح الصّلات القائمة بين علم الأحياء وعلم الإناسة ويصوّر مسبّقا العمل الطّويل الّذي سيتطلّبه البحث مستقبلا.

1977- نشر الجزء الأوّل من "المنهاج" بعنوان "طبيعة الطّبيعة". سيكرّس جهوده من الآن فصاعدا، بفضل تفكيره المتعدّد الفروع المعرفيّة، في البحث عن منهج قادر على رفع تحدّي التّعقيد. وهكذا ستظهر الأجزاء الموالية تباعا : "حياة الحياة" سنة 1980، و"معرفة المعرفة"سنة 1986، و"الأفكار، مقرّها، حياتها، عاداتها، تنظيمها" سنة 1991، و"إنسانيّة الإنسانيّة. الهويّة البشريّة" سنة 2001.

1981- تحصّل على وسام الشّرف من وزير العلم والتّكنولوجيا. بالإضافة إلى ذلك، وبموازاة اشتغاله على "المنهاج"، استمرّ حتّى اليوم في كتابة مقالات تحليليّة سياسيّة وسوسيولوجيّة منها "للخروج من القرن العشرين" سنة 1981، و"العلم مع الوعي" سنة 1982، و"طبيعة الاتّحاد السّوفييتيّ" سنة

1983، و"علم الاجتماع" سنة 1984، و"التّفكير في أوروبّا" سنة 1987، و"الأرض- الوطن" سنة 1993، و"الثقافة والهمجيّة الأوروبّيّتان" سنة 2005 الخ... انظر البيبليوغرافيا.

1984- موت أبيه يوم 9 أوت.

1989- نشر كتاب "فيدال وخاصّته"، وفيه يعود أدغار موران إلى جذوره محتفلا بذكرى أبيه. تحصّل في نفس السّنة على جائزة "فييا ريجّيو العالميّة".

1992- تحصّل على ميداليّة مجلس النّواب لجمهوريّة إيطاليا وعلى جائزة "ميديا" من منظّمة الصّحافيين الأوروبّيين.

1994- مواصلة ليومياته الأولى "نبض الذّات" الّتي كتبها عندما كان على فراش المرض في خريف 1962، نشر "شياطيني"، ثمّ لا حقا "سنة سيزيفيّة" سنة 1995، و"البكاء، الحبّ، الضّحك، الفهم" سنة 1996. يقول موران : "الحيّز الأكبر من اليوميات هو لأخذ ما يلي بعين الاعتبار : أنّ الحياة غير متّصلة. نمرّ دون انقطاع من أشياء صغيرة قريبة جدّا منّا وتؤثّر فينا شخصيّا... إلى قضايا أعظم تؤثّر في العالم بمقتضى مثيرات نجهلها."

1997- تحصّل على درجة الاستحقاق الرّسميّة، وهو التّكريم الأرفع من الحكومة الإسبانيّة. نشر كتاب "الحبّ، الشّعر، الحكمة"، وهي مجموعة تشكّلت من ثلاث محاضرات ألقاها في فرونوبل (1990) وستروفا (1990) وباريس (1995).

1998- نظّم ونسّق في باريس أيّاما فكريّة للتّباحث في مسألة التّعليم والتّربية في المدارس والمعاهد والجامعات. كما حقّق في البرازيل المؤتمر البين لاتيني للتّفكير المعقّد.

1999- تحصّل في البرتغال على وسام الرّمز العظيم من تنظيميّة سانتياغو للسّيف، وفي البرازيل على صفة الأستاذ الشّرفي في جامعة ناتال وجامعة جوواو بيسّووا.

2000- نشر انطلاقا من نصوص الأيّام الفكريّة ومناقشاتها كتاب "الرّبط بين المعارف". تحصّل في البرازيل على لقب الأستاذ الشّرفيّ في الجامعة الكاثوليكيّة لبورتو ألآفري.

2001- تحصّل على ميداليّة أرسطو الذّهبيّة من اليونيسكو.

2005 – أصدر العديد من الكتب من بينها كتابه الشّهير "ثقافة أوروبّا وهمجيّتها" (2005) الّذي ضمّ محاضرات ثلاث ألقاها في جامعات أوروبّيّة مختلفة.

مؤلّفات أدغار موران

ترجمت مؤلّفات أدغار موران إلى 28 لغة في 42 بلدا ومع الأسف لم يُترجم منها إلى اللّغة العربيّة سوى كتب ثلاثة.

- **1946, *L'An zéro de l'Allemagne*, Paris**
- **1948, *Une cornerie*, Édition Nagel, Paris, 223 p.**
- **1951, *L'Homme et la mort*, Le Seuil**
- **1956, *Le Cinéma ou l'homme imaginaire*, Éditions de minuit**
- **1957, *Les Stars*, Le Seuil, coll. Le temps qui court ; 3e édition, remaniée et augmentée, coll. Points, 1972**
- **1959, *Autocritique*, Le Seuil**
- **1962, *L'Esprit du temps*, Éditions Grasset Fasquelle**
- **1967, *Commune en France. La métamorphose de Plodémet*, Fayard, Paris, 1967, 287 p. (cf. Plozévet)**
- **1969, *La Rumeur d'Orléans***
- **1969, *Introduction à une politique de l'homme, Le Seuil***
- **1970, *Journal de Californie***
- **1973, *Le Paradigme perdu : la nature humaine***
- ***La Méthode* (6 volumes), coffret des 6 volumes en 2 tomes, collection Seuil Opus, 2008**
    - **1977, *La Nature de la nature* (t. 1), Le Seuil, Nouvelle édition, coll. Points, 1981**
    - **1980, *La Vie de la vie* (t. 2), Le Seuil, Nouvelle édition, coll. Points, 1985**
    - **1986, *La Connaissance de la connaissance* (t. 3), Le Seuil, Nouvelle édition, coll. Points, 1992**
    - **1991, *Les Idées* (t. 4), Le Seuil, Nouvelle édition, coll. Points, 1995**

- **2001, *L'Humanité de l'humanité - L'identité humaine* (t. 5), Le Seuil, Nouvelle édition, coll. Points, 2003**
- **2004, *Éthique* (t. 6), Le Seuil, Nouvelle édition, coll. Points, 2006**

- ***Autocritique* Le Seuil - (sa prise de distances avec le Parti communiste)**
- **1981, *Pour sortir du XX^e^ siècle*, Nathan. Nouvelle édition, Seuil, coll.**
- **1982, *Science avec conscience*, Fayard, Nouvelle édition remaniée, coll. Points, 1990**
- **1983, *De la nature de l'URSS*, Fayard, 272 p.**
- **1984, *Le Rose et le noir*, Galilée, 127 p.**
- **1987, *Penser l'Europe*, Gallimard, Folio Actuel 1990 (260 p).**
- **1988, *Mais*, Édition Neo/Soco Invest, avec Marek Halter. 145 p.**
- **1989, *Vidal et les siens***
- **1990, *Introduction à la pensée complexe*, Le Seuil**
- **1993, *Terre-patrie* (avec la collaboration d'A.B. Kern), Le Seuil, Nouvelle édition coll. Points, 1996**
- **1994, *Mes démons*, Stock, coll. Au vif**
- **1994, *La Complexité humaine*, Textes choisis, Champs Flammarion, coll. l'Essentiel**
- **1995, *Les Fratricides - Yougoslavie-Bosnie 1991-1995*, Édition Arléa. 123 P**
- **1995, *Une année sisyphe* Seuil, 500 p.**
- **1997, *Comprendre la complexité dans les organisations de soins*, (avec Jean-Louis Le Moigne), ASPEPS Éd.**
- **1997, *Pour une politique de civilisation*, Paris, Arléa, 250 p.**
- **1997, *Amour Poésie Sagesse* Seuil, 81 p.**

- **1999, *L'Intelligence de la complexité,* (avec Jean-Louis Le Moigne), Éd. l'Harmattan**
- **1999, *Relier les connaissances,* Le Seuil**
- **1999, *La Tête bien faite,* Le Seuil**
- **2000, *Les Sept savoirs nécessaires à l'éducation du futur,* Le Seuil**
- **2000, *Dialogue sur la nature humaine,* Edition France Culture/l'Aube intervention, avec Boris Cyrulnik. 70 p.**
- **2001, *Journal de Plozévet, Bretagne, 1965* (Préparé et préfacé par Bernard Paillard), La Tour d'Aigues, L'Aube**
- **2002, *Dialogue sur la connaissance. Entretiens avec des lycéens* (entretiens conçus et animés par Alfredo Pena-Vega et Bernard Paillard), La Tour d'Aigues, L'Aube, 70 p.**
- **2003, *La Violence du monde* (avec Jean Baudrillard), Édition du Félin, 92 p.**
- **2003, *Éduquer pour l'ère planétaire, la pensée complexe comme méthode d'apprentissage dans l'erreur et l'incertitude humaine* (avec Raul Motta, Émilio-Roger Ciurana), Balland, 158 p.**
- **2003, *Université, quel avenir ?* (avec Alfredo Pena-Vega), 120 p., Éditions Charles Léopold Mayer, (ISBN 2-84377-074-2);**
- **2003, *Les Enfants du ciel : entre vide, lumière, matière* (avec Michel Cassé), Odile Jacob, 142 p.**
- **2004, *Pour Entrer dans le XXI^{e} siècle,* réédition de *Pour sortir du XX^{e} siècle* publié en 1981, Le Seuil, 400 p.**
- **2006, *Itinérance,* Arléa, transcription d'un entretien avec Marie-Christine Navarro en 1999 sur France-Culture, retraçant sa carrière.**

- **2006, *Le Monde moderne et la question juive*, Le Seuil. (ISBN 2-02090-745-3)**
- **2007, *L'an I de l'ère écologique* (avec la collaboration de Nicolas Hulot), Tallandier, 127 p. (ISBN 2-84734-441-1)**
- **2007, *Vers l'abîme*, L'Herne, 181 p. (ISBN 978-2-85197-692-5)**
- **2007, *Où va le monde?*, L'Herne, 108 p. (ISBN 978-2-85197-669-7)**
- **2008, *Mon chemin. Entretiens avec Djénane Kareh Tager* , Fayard, 368 p. (ISBN 9782213636832)**
- **2008, *Mai 68, La Brèche*, avec Claude Lefort et Cornelius Castoriadis, Fayard, 306 p. (ISBN 9782213636986)**
- **2008, *Vive la politique ?*, avec Claude Lefort, Forum Libération de Grenoble sur CD audio, Frémeaux & Associés**
- **2009, *Crises*, CNRS, Débats (5 novembre 2009)**
- **2009, *La Pensée tourbillonnaire - Introduction à la pensée d'Edgar Morin*, Éditions Germina, Entretiens**
- **2009, *Edwige, l'inséparable*, Fayard, 320 p. (ISBN 9782213644080)**
- **2010, *Pour et contre Marx*, Temps Présent, 128 p.**
- **2010, *Ma gauche*, Bourin Editeur, 272 p.**
- **2011, à paraître en Janvier, *Entretien* présenté par Laurent Greilsamer, directeur adjoint du Monde et animé par Nicolas Truong à l'initiative du journal Le Monde, sur CD audio, Frémeaux & Associés.**

أشرطة وثائقيّة عن أدغار موران

- **1961 : *Chronique d'un été*, co-réalisé avec Jean Rouch**
- **1966 : *Un certain regard. Le cinéma vérité*, d'Edgar Morin, réalisation Alexis Klémentieff et Jacques Prayer (ORTF)**
- **2004 : *Regard sur Edgar*, entretiens thématiques accordés à Samuel Thomas, en DVD aux Éditions Montparnasse (267 mn)**
- **2009 : *Nous resterons sur Terre*, film environnemental réalisé par Olivier Bourgeois et Pierre Barougier (sortie 8 avril 2009)**
- **2009 : *Empreintes : Edgar Morin*, film documentaire France 5 (février 2009)**

أشرطة فيديو عن أدغار موران

- **Vidéos d'Edgar Morin réalisées par Denis Failly autour d'*Intelligence de la complexité* issu du colloque de Cerisy**
- **Vidéo *La Complexité*, 1994**
- **Regard sur Edgar Entretiens thématiques réalisés par Samuel Thomas.**
- **Edgar Morin nous donne sa vision de l'homme et de la planète**
- **Conférence : *Crise et mondialisation, abîme ou salut ?***
- **Conférence : université d'Été : *Relier les Connaissances, Transversalité, Interdisciplinarité*. Production : université Louis-Pasteur, Strasbourg, 2002.**

الفهرس

- تمهيد
- تقديم: إدغار موران وسؤال الهمجيّة لأستاذ الفلسفة كمال الزّغباني
- الفصل الأوّل: الهمجيّة الإنسانيّة والهمجيّة الأوروبّيّة
- الفصل الثّاني: التّرياق الثّقافيّ الأوروبّيّ
- الفصل الثّالث: التّفكير في همجيّة القرن العشرين
- الملاحق:

1 - السّيرة الذّاتيّة لأدغار موران

2 - مؤلّفات أدغار موران

3 - أشرطة وثائقيّة وفيديوهات عن أدغار موران

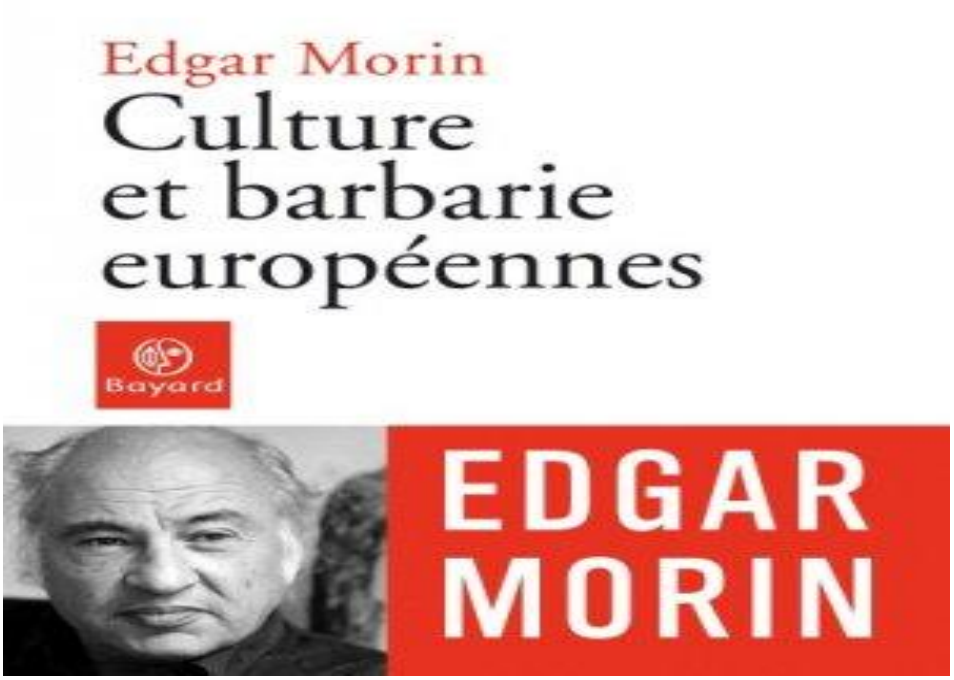

أدغار موران، المولود بباريس سنة 1921، درس التّاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد والفلسفة، وتحصّل على الإجازة في التّاريخ والجغرافيا وعلى الإجازة في الحقوق سنة 1942. انضمّ في تلك الفترة إلى المقاومة وأثناءها سُمّي باسم الشّهرة "موران".

عند التّحرير، عيّن رئيسا لمكتب "بروباجندا" في إدارة المعلومات في الحكومة العسكريّة الفرنسيّة بألمانيا. في تلك الأثناء، نشر كتابه الأوّل "السّنة الصّفر لألمانيا" (1947). طوال مسيرته، يقوم أدغار موران ببذر تعدّد الشّعب العلميّة. وهكذا، مارس أنشطة صحافيّة وتعليميّة وبحثيّة بما أنّه دخل سنة 1950 إلى المركز الوطنيّ للبحوث العلميّة CNRS. أصدر العديد جدّا من المؤلّفات الّتي ترجمت إلى 27 لغة ونشرت في أربعين بلدا. ومن خلال مؤلَّفه الأهمّ "المنهاج" La Méthode الّذي يتكوّن من ستّة مجلّدات، يتصدّى لصعوبة التّفكير في تعقّد الواقع.

أدغار موران هو دكتور فخريّ في العديد من جامعات العالم وحائز على أوسمة ثقافيّة ورمزيّة كثيرة. مواقفه السّياسيّة النّقديّة ومنها نقده للصّهيونيّة ومناصرته لحركات التّحرّر في العالم جعلته رمزا من رموز الحرّيّة في عصرنا.

نشر سنة 2005 كتاب "ثقافة أوروبّا وهمجيّتها" (منشورات بايار) الّذي اقترح فيه تفكيرا في التّعايش بين الثّقافة والهمجيّة وأوضح أنّ أوروبّا لا يمكنها أن تعيد بناء نفسها إلاّ في الاعتراف بجميع الهمجيّات ومن خلاله ، لا من خلال النّدم عليها. ذلك أنّ "التّفكير في الهمجيّة، هو قبلا بداية المقاومة".